الكتاب الثانى

السودان فى عصر اسماعيل

الفصل الثالث

السودان من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٧

كان ابراهيم يقول بعد تفكك الامبراطورية المصرية فى سنة ١٨٤١ ان عظمة مصر الحقيقية وميدان توسعها فى السودان وكان نوبار باشا كبير وزراء اسماعيل أول من آمن بهذه الفكرة ونصح الوالى بنبذ كل فكرة توسعية ناحية الشام على أن تكون مهمة مصر الكبرى وغايتها الأولى نشر الحضارة فى أفريقيا . (١)

جعل اسماعيل هذه الفكرة محور سياسته وقطب الرحى فيها سيما وأن مصر كانت دولة أفريقية . وغير خاف أن الهمجية وعاداتها كانت سائدة فى القارة السوداء حتى تسرب اليها نفوذ العرب والاسلام قبل نزوح الأوربيين اليها بزمن حاملا لواء مدنية عالية .

وقد كان الاحتلال الرومانى بدء اجتذاب العرب فى أفريقيا . وفى أوائل القرن الثانى الميلادى كانت مصر ومراكش وجميع البلاد الواقعة على الساحل فى شمال أفريقيا واقعة فى قبضة الغزاة المسلمين الذين نشروا فى ربوعها حياة جديدة زراعية وتجارية وأدبية وأسسوا دولا قوية وعواصم

---

(١) مذكرات نوبار باشا المحفوظة فى باريس فى خزانة الأسرة

حضارة زاهيـــة زاهرة فى القاهرة وقيروان وفاس . وأوغل العرب النازحون تدريجيا فى داخل أفريقيا ، فى جميع المناطق التى يستطيع أن يعيش فيها الجمل وينعم .

نزح العرب الرحل من وادى النيل الأعلى أو من سواحل البحر الأحمر وأوطنوا السودان والبلاد التى يسقيها مجرى النيجر الأعلى وأسسوا على ساحل أفريقيا الشرقى مقدشو وقيلوه وبراوة وميلندة ومونباسة .

وامتد الاسلام الى زنجبار وجزء من الحبشة وهرر وبلاد الصومال وكردفان ودار فور ووداى وقانم وسكوته وباجرمه وبلاد أخرى كثيرة .

وكان النفوذ العربى الاســلامى قبيل تقسيم أفريقيـــا ، فى حوالى سنة ١٨٨٠ ينتشر رويدا فى قلب أوغندة والقارة السوداء .

١ — السودان من سنة ١٨٦٣ لغاية ١٨٧٧ :

موسى باشا حمدى (١٨٦٢ — ١٨٦٥) .

كان موسى باشا حاكم السودان وقت ولاية اسماعيل (١٨٦٣) . وقد كان ذا خبرة طويلة بشؤون البلاد وكان يريد وضع حد لشكاية السكان وجفوتهم من جراء فداحة الضرائب وعلى الأخص الطريقة العسوف التى يستعملها الباشبوزق فى جبايتها وهم جنود السلطة غير النظاميون وعمالها . وقد أصدر قرارات تحدد مقدار كل ضريبة فى سجلات الحكومة وسلم دافعى الضرائب دفاتر أو سراكى يقيد فيها الموظف المختص كل مبلغ يدفع من أصل المبلغ الموزع على ثلاثة أقساط فى العام . وعين من السكان رؤساء ووكلاء مراكز .

جعفر باشا مظهر (١٨٦٦ — ١٨٧١) :

أعقب جعفر باشا مظهر جعفر باشا صادق الذى كان حاكما للسودان فى سنة ١٨٦٥ . ومن أهم أعماله انشاء المحاكم والمدارس وتحسين ترسانة

الخرطوم . وكانت سياسته فى مجموعها سياسة اصلاحية . وهو الذى أخمد ثورة الجنود فى كسلا التى ابتدأت فى عهد حمدى باشا سنة ١٨٦٥ ، وكان أكبر عون له فى ذلك آدم بك المشهور الذى صار فيما بعد باشا وقائد الجيوش المصرية فى السودان .

وآدم باشا عربى سودانى مسقط رأسه فى كردفان وفى رواية زنجى من الدنكا ، وقد تلقى العلم صغيرا فى مصر ، وصحب ابرهيم باشا فى حروبه فى الشام . وفيها أظهر شجاعة نادرة وكفاءة ممتازة . وقد ذكر الخديوى اسماعيل كل ذلك لرفيق أبيه القديم فأجزل له من العطاء والرتب واستمرت بذلك تقاليد مشاركة السودانيين فى الحكم مع المصريين . وكان فى ذلك الوقت سودانى آخر ، حسين باشا خليفة ، حاكما على مديريتى بربر ودنقلة .

اسماعيل باشا أيوب (١٨٧٣ — ١٨٧٧) :

من سنة ١٨٧١ لغاية ١٨٧٣ كان ممتاز باشا حاكما للسودان . وهو شركسى عالى الفطنة محب للاصلاح . وحسبه انه أول من أدخل زراعة القطن المصرى فى السودان وعنى بصناعاته ولكن تقارير وصلت الى القاهرة تتهمه بالرشوة فألقى القبض عليه وحقق معه وظل فى سجنه بالخرطوم الى أن مات سنة ١٨٧٥

كان خلفـه اسماعيل باشا أيوب أحسن منـه حظا . كتب السير صاموئيل بيكر فى أثناء رحلة العودة من السودان فى يولية ١٨٧٣ يقول : « لقد أدخل اسماعيل باشا تحسينات كبيرة فى مدينة الخرطوم . وهو الذى أكمل بناء مستشفى الحكومة الذى بدأه سلفه ممتاز باشا ، وهو شركسى مثله . وهو مثله أيضا فى قوة ذكائه . وبفضل عنايته تحولت أراض واسعة جرداء الى حديقة عامة تصدح فيها كل مساء الموسيقى العسكرية .

« وفى أيامه أيضا بدئت أعمال الرى بواسطة البخار على الضفة الشمالية من النيل لزراعة القطن .

« وقد قضينا أياما فى الخرطوم ثم ودعنا صديقنا الجليل اسماعيل باشا أيوب وسافرنا الى مصر فى باخرة .

« وقد تركت لاسماعيل باشا غلامىّ سعد وبلال لينشئهما تنشئة موسيقية أو عسكرية ، وكانت الأخيرة أقرب الى مشتهاهما . وكانت فى الخرطوم فى ذلك الوقت مدرسة لتعليم أذكى الشبان السود الذين يصير من الميسور تحريرهم من تجار الرقيق .

« ولما بلغنا بربرا وجدت تحسنا ظاهرا فى حالة البلاد اذ بدأ العرب فى اعادة بناء سواقيهم على ضفاف النهر الخصبة . وتلك احدى نتائج اصلاح حكيم قام به الخديوى : وهو تقسيم السودان الى مديريات يحكم كل مديرية مدير مسئول لايخضع ثمت للحاكم العام الذى كان يقيم فى بلد قصى كالخرطوم (١) » .

وكتب مسيو جيجلر ، مدير البرق بالخرطوم ، يقول :

« لقد عاد اسماعيل باشا أيوب من دارفور من شهر مضى بعد غيبة عامين . وقد كان استقباله عظيما . وهو محبوب حبا جما فى جميع البلاد التى يحكمها بحزم وعدل . وقد وجدت فى الخرطوم تحسينات عظيمة وفتحت فيها شوارع واسعة فسيحة وأصبحت المدينة أكثر بهاء ، وأهم من ذلك ، أصبحت مصحة بعد أن كانت كثيرة الأوباء (٢) » .

وكتب أحد قناصل فرانسا قديما بالخرطوم يقول :

« انه محبوب جدا فى السودان حيث بدأ ينشىء مزارع قطن ونيلة ويعدل نظام الضرائب بمنع مشايخ العرب من جبايتها وايجاد نوع من الرقابة لايزال باقيا الى اليوم (٣) » .

---

(١) صموئيل بيكر (اسماعيلية) فى مجلدين بالانكليزية. انظر الجزء الأول ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨ .

(٢) Douglas Murray and Silva White. Sir Samuel Baker. A Memoir خطاب من جيجلر الى صاموئيل بيكر بتاريخ ٣٠ مايو سنة ١٨٧٦

(٣) Louis Vossion. Khartoum et le Soudan d'Egypte. Nouvelle Revue Mars, 1883

وقد لعبت تجارة الرقيق فى عهد ذلك الحاكم كما لعبت فى عهد جميع الحكام السابقين واللاحقين دورا كبيرا فى تاريخ السودان . وكانت أهم مراكز هذه التجارة فى أقاليم كردفان وبحر الغزال ودارفور الجنوبية النائية . وكانت دارفور فى سنة ١٨٧٤ لارقابة لمصر عليها فكان لا بد من اخضاعها لسلطانها قبل أن يسيطر عليها تجار الرقيق الذين كانوا بفضل ثروتهم وعصاباتهم المسلحة الأجيرة سادة أفريقيا الوسطى وخطرا يتهدد السيادة المصرية الفعلية على هذه الأقطار .

ومنذ سنة ١٨٦٩ فقط بدأت مصر تنظر الى النخاسة والنخاسين كخطر سياسى تخشاه ولكنها كانت لاتريد استعمال العنف لمحاربة النخاسة الا عند الضرورة القصوى على أن يكون ذلك بمنتهى الحكمة والمصانعة حتى لاتثور ثائرة المصالح المختلفة المرتبطة بهذه التجارة المشروعة القديمة .

وقد بلغ من مهارة حكام السودان المصريين أنهم كانوا عند ضرورة الالتجاء الى القوة ضد النخاسين يدفعون بعضهم الى مهاجمة البعض ويؤكدون بذلك ، دون تضحية ، سلطانهم عليهم .

وهذا ما حدث فى سنة ١٨٦٩ عينها فان نخاسى بحر الغزال قد أحسوا بقوتهم وارادوا تحدى الحكومة المصرية فامتنعوا عن دفع المبلغ السنوى المتعاقد عليه . وكان على رأس أولئك النخاسين العصاة زبير رحمت الذى ذاع صيته فى أرجاء السودان وكان فى الواقع أكبر شخصية سودانية فى القرن التاسع عشر .

زبير رحمت من سلالة العباسيين الذين نزحوا من بغداد الى مصر فأعالى النيل على أثر غزو التتر فى سنة ١٢٧٨ هجرية . وكان متصفا بالذكاء والفطنة والشجاعة والاقدام فساعدته هذه الصفات ، وكان وكيلا فى بحر الغزال لعلى عمورى التاجر بالصعيد ، على أن يصبح فى سنوات

قلائل ملكا غير متوج له قصر وجيش وحصون وزرايب فى طول خط أعالى النيل وترسانة وسفن وثروة ضخمة .

وكان الخديوى اسماعيل ألب عليه فى سنة ١٨٦٩ بلال أحد النخاسين وعينه مديرا لبحر الغزال ليوطد فيها سلطته المزعزعة ويحتل دارفور بعد ذلك ولكن زبير أوقع بلالا فى كمين وقتله ومزق الحملة التى كان على رأسها شر ممزق .

وفى أثناء ذلك قامت أسباب نزاع وعراك بين السلطان ابراهيم سلطان دارفور ورحمت زبير الذى بدأت قوته المتزايدة تقلقه وتخيفه . فما كان من الزبير الا أن أخذ يعد العدة لغزو دارفور من الجنوب ويعمل على بسط سلطانه ونفوذه بطريقة لا تتلاءم مع مصالح مصر .

وكان اسماعيل باشا أيوب يعلم ذلك ويرقب الحوادث فشرع من ناحيته يتأهب لغزو دارفور من الشرق على أن يترك زبير يغزوها لحساب مصر . وكان الزبير قد استولى فعلا على بحر الغزال وعلى شاكه وهى القسم الجنوبى من دارفور فما كان من الخديوى الا أن بادر بتعيينه حاكما على البلاد التى فتحها وأمره باتمام فتح دارفور بالتعاون التام مع أيوب باشا .

وما عتم الزبير أن كتب له النصر فى دارفور فى سنة ١٨٧٤ على أثر معركة حاسمة قتل فيها السلطان ابراهيم واثنان من ولده وصارت دارفور كلها فى قبضة المصريين . عندئذ أنعم الخديوى برتبة الباشوية على الزبير الذى لم يرض بها اذ كان يطمع بحق فى وظيفة الحاكم العام للمديرية الجديدة .

لذلك قرر الزبير الذهاب الى القاهرة ليرفع ظلامته الى الخديوى شخصيا . وقد حل محله ابنه سليمان فى أثناء غيبته التى طال أمدها على غير انتظار . ذلك لأن الخديوى تذرع بكل الوسائل لابقائه فلاينه وجر له الوعود .

وكان أول أثر لاحتلال المصريين دارفور ودخول قواتهم العسكرية فيها انتشار الأمن والنظام فى ربوعها . أنشأ اسماعيل أيوب فى مختلف أصقاع السودان مراكز صحية علاجيـة منتشرة من البحر الأحمر الى النيل ، بين سواكن وبربر ، ومن النيل الى حدود واداى وفى دار فرتيت بين الخرطوم ودارفور .

* * *

يبدو مما تقدم جليا أن السودان فى عهد الادارة المصرية منذ عهد محمد على كان فى تقدم مستمر على الرغم من جميع الأخطاء والمصاعب التى لا محيص عنها فى عصر انتقال وتجارب وتكاليف توضع فيه الأسس الأولى للنظام والعمران ، فى عصر يعتبر بحق أشق مرحلة من مراحل الانشاء .

وقد حدثت فى جميع الميادين اصلاحات كبرى أو محاولات اصلاحية واسعة كان لها أثر كبير عاجل أو آجل فى الحياة العامة . وقامت المدن واتسعت وساد « السلم المصرى » فى كل مكان . ورجعت الصحراء والقوى الرجعية المضطربة القهقرى أمام التوسع المصرى .

وعلى الرغم من كثرة النفقات التى يتطلبها الفتح والتنظيم كان السودان خاليا من الديون تفى ميزانيته بحاجاته . كتب المالى الشهير (كيف) ، الذى أرسل الى مصر لبحث حالتها المالية ، فى تقريره الذى صدر سنة ١٨٧٦ يقول : « ان المعلومات التى استخلصناها تدل على أن السودان بلد غنى بأرضه وسكانه وقمحه . ويتبين من الاحصاءات الرسمية انه بعد خصم تكاليف حملة دارفور وحملة البحيرات الكبرى يبلغ الفائض فى الخزانة مائة وخمسين ألفا من الجنيهات هى مقدار الدخل » .

والواقع أن الاختلال المالى كان جرثومة فى البحيرات الاستوائية (حملة بيكر ١٨٧٠ — ١٨٧٤) ، ثم استفحل فيما بعد فى دارفور (ادارة غردون ١٨٧٧ — ١٨٧٩) وكانت السياسة الانجليزية هى القاضية على معظم النتائج الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى حصل عليها الحكم المصرى بكل مشقة فى مسافة نصف قرن وأكثر .

الفصل الرابع

امتداد السودان إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى

السومال وهرر

(١٨٧٠ — ١٨٨٠)

ابتداء من سنة ١٨٦٥ أخذ اسماعيل يتبع سياسة ايجابية فى البحر الأحمر ليضمن لمصر السيادة التامة على الساحل الأفريقى لذلك البحر الذى كانت تركيا تهيمن على ساحله الأسيوى .

وكانت الخطوة الأولى لتحقيق هذا الهدف هى تنازل الباب العالى لوالى مصر عن ميناءى سواكن ومصوع .

فى سنة ١٨٦٦ ، بتاريخ ٢٧ مايو ؛ صدر فرمان يمنح « الحكومة الوراثية فى مصر وفى جميع الملحقات والأراضى التابعة لها وفى قائمقاميتى سواكن ومصوع » .

وما كادت تفتتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ وتظهر للعالم أهمية البحر الأحمر حتى كان اسماعيل قد مد سلطان مصر على سواحل البحر الأحمر الأفريقية وكان احتلال مين السومال المواجهة لعدن بصفة خاصة يقلق السياسة الانجليزية .

ظهرت أثار هذا القلق وبوادره فى العلاقات الانجليزية المصرية منذ شق القناة : من ذلك ان عراكا نشب بين قبائل بلهار وبربرة على خليج عدن فذهب جمالى بك ليصلح بين الطرفين ويوطد السلام فما كان

من حاكم عدن القائد ادوارد راسيل بمجرد علمه بوصول جمالى بك فى هذه الأصقاع الا أن كتب اليه يسأله عن سبب مجيئه وعما اذا لم يكن الدافع له فكرة الفتح والاستيلاء (أبريل سنة ١٨٧٠)

وقد وجه شريف باشا وزير الخارجية المصرية بهذه المناسبة ، الى قنصل انجلترا العام ، بتاريخ أول يونية سنة ١٨٧٠ ، خطابا يؤكد فيه حقوق مصر ، قال فيه : « ان الأراضى المذكورة ليست مستقلة ، انها تظل كما كانت دائما عثمانية . وهى ضمن البلاد التى تنازل عنها الباب العالى للحكومة المصرية بمقتضى فرمان سلطانى نص فيه على مديريات مصوع وسواكن وملحقاتهما . على أن مصر لاتزال تدفع جزية سنوية مقابل ذلك .

« فلا يسع الحكومة المصرية مطلقا أن تترك الحقوق الثابتة التى لها على هذه البلاد [1] » .

حقيقة الأمر ان انجلترا كانت تريد أن تعقد مع قبائل السومال كما عقدت من قبل مع قبائل عدن معاهدات تجارية وأن توجد معها علاقات وارتباطات تجذبها فى دائرة نفوذها .

ولكن اسماعيل لم يكن غافلا . اذ كان أسطوله فى البحر الأحمر بقيادة جمالى بك مكونا من ثمان سفن ، وكانت محطات الأسطول فى بورسعيد والاسماعيلية والسويس وجميع الساحل الافريقى لغاية أقصى نقطة فى شرقى خليج عدن .

وفى يونية سنة ١٨٧٠ عين ممتاز باشا حاكما عاما على جميع الساحل الأفريقى من السويس الى جردفوای .

ولاشك أن وجود سلطات مصرية فى هذه الأرجاء كان عاملا فى ايجاد

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية مجلد ٣١٨٦ .

النظام ووضع حد للحروب المستمرة بين القبائل وما الى ذلك من عادات همجية كسرقة الأطفال لبيعها أو بيع الأطفال لشراء البقر .

ولم تمض سنوات قلائل حتى ظهرت آثار المدنية المصرية فى تلك الأقطار النائية وأخذت مدينةبربرة فى بلاد السومال منذ سنة ١٨٧٣ تحيا حياة جديدة وتنعم بالسلم والأمن بعد حياة الفوضى والنهب والسلب والقتل .

كتب الكولونيل استانتون من الاسكندرية بتاريخ ١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٤ الى وزير الخارجية الانجليزية يقول :

« لعل مولاى يسمح لى بأن أقرر أن ايجاد ادارة منتظمة على ساحل السومال تقضى على أسباب النزاع الداخلية بين القبائل وعلى المعارك التى تعطل التجارة فى هذه الأرجاء خير لنا ولأملاكنا فى عدن من معاهداتنا التجارية مع مشايخ بربرة وزيلع وتاجورة [(١)] » .

وقد تنازل الباب العالى لمصر عن زيلع فى يونية سنة ١٨٧٥ مقابل دفع ١٥٠٠ جنيه تركى سنويا فأخذ اسماعيل ينشىء فى تارجورة وغيرها حكومات تتصل بسكان البلاد الداخلة وتفتح الطرق للتجارة .

كتب الضابط وود الى السير اليوت سفير انجلترا بالآستانة فى ٦ أغسطس سنة ١٨٧٥ يقول : « ان التنازل عن ميناء زيلع والاستيلاء على بربرة يجعلان ساحل البحر الأحمر الغربى كله فى قبضة مصر ، ولا ريب أن المناطق التى كانت من قبل مستوحشة لايستأنس بها أخذ المصريون يصلونها عاجلا بالعالم المتمدين ، وقد اختصر « التلغراف » بينها وبين سواكن زهاء نصف البحر الأحمر الجنوبى ، ومن السهل الاتصال بهذا الميناء من أى نواحى الساحل اذ يوجد فى كل قرية موظف مصرى ومعه طائفة من الجند لحفظ النظام ويوجد بريد شهرى منتظم بين السويس ومصوع تحمله سفن بخارية تجرى بالقرب من الساحل الغربى بين

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ ، مجلد ٣١٨٧ .

الصخور ، وكثيرا ما تلمح هذه السفن اشارة الاستغاثة » .

وقد ختم كلمته بتعديد خدمات السلطات المصرية فى البحر الأحمر للملاحة والمدنية [١] .

كان هدف اسماعيل العام التقدم فى الساحل والايغال فى داخل البلاد فى وقت واحد مع تدعيم احتلاله بتنفيذ سياسة اصلاحية واسعة وهذا ما حدا به بمجرد احتلال هرر فى سنة ١٨٧٥ — مما سنبينه فيما بعد — الى التعجيل باتمام الاستيلاء على ساحل السومال صوب المحيط الهندى لتحقيق مشروع عاجل يتصل اتصالا كليا بالمشروع العام : امتلاك منفذ جهة الشرق فى موازاة خط الاستواء لانشاء مواصلات مع المديريات الاستوائية التى تم فتحها ، مواصلات أسهل وأقصر من مواصلات النيل واقامة سور امبراطوريته فى أقصى الجنوب الشرقى على خط يصل بحيرة فكتوريا بساحل أفريقيا الشرقية فى مونباسة .

وهــذا المشروع الضخم ستعمل انجلترا على احباطه بكل الوسائل لتقوم هى بتنفيذه فيما بعد .

والواقع أن التفكير فى المشروع يرجع الى سنة١٨٧١ أى منذ الشروع فى بسط نفوذ مصر لغاية خط الاستواء والبحيرات وكانت آخر محاولة فى تنفيذه فى سنة ١٨٧٦

ما كاد اسماعيل يكلف صموئيل بيكر (فبراير ١٨٧٠) بقيادة حملة أفريقيا الوسطى حتى أعد مشروعه الذى نحن بصدده فى القاهرة فكان خط السير المرسوم للكولونيل الأمريكى بيردى Purdy النزول فى مونباسه والوصول منها الى بحيرة فكتوريا من الطريق الذى يمر بين جبلى كينيا وكيليمانجارو .

ولأجل اخفاء الغرض الحقيقى من المشروع جرت اشاعة فى سنة ١٨٧١

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ ، مجلد ٣١٨٨ .

ان كارثة حلت بتجريدة صموئيل بيكر وان الحملة المرسلة لانقاذه يجب أن تدخل أفريقيا من نقطة قريبة من زنجبار .

روى بونولابك فى مؤلفه (مصر والجغرافيا) : « ان الضباط والجنود والسفن والمؤن كانت كلها معدة . ولكن أحداثا سياسية طارئة حالت دون تنفيذ هذا المشروع » .

وكان اسماعيل سلم الكولونيل بيردى خطابا يشتمل على تعليماته ليفتحه عند وصوله الى بلاد كيليما ، أوصاه فيه بأن ينشىء نقطة عسكرية فى مناطق جبال كيليما وأن يعمل « كمن يريد الاقامة والتوطن وأن يتبع مع تجار العاج والرقيق سياسة حكيمة معتدلة لأن الشعوب المحلية يجب أن تفهم أن مهمتنا لايربطها بمهمة أولئك التجار أى غرض مشترك ، والتجار يجب أن يفهموا أنك لاتذهب للاضرار بمصالحهم » .

وقد لخص اسماعيل فكرته العظيمة التى كانت محور سياسته الافريقية بقوله : « يجب على شعوب مناطق منابع النيل أن يكونوا من اليوم أصدقاء وحلفاء خديوى مصر » .

ومعلوم أن جبلى كيليما نجارو وكينيا من أعلا جبال أفريقيا وأجملها وأطيبها مقاما للأوربيين وهما الآن فى حوزة انجلترا وكان أولهما فى أفريقيا الشرقية الألمانية . .

وكان من المقرر انشاء خط على الساحل بواسطة البواخر من مصوع الى مونباسه وخط آخر خلاف خط مونباسه يمتد من مين الساحل الشمالى (خليج عدن) بربرة وزيلع الى هرر فشوا فالجالا فالكافا حتى منابع النيل .

ويظهر انه لما حيل بينه وبين مشروعه فى سنة ١٨٧١ فضل اسماعيل التريث حتى حل غردون محل بيكر مأمورا لمديرية خط الاستواء فى سنة ١٨٧٤ واتفق مع غردون على تنفيذ مشروعه من جديد وارتأى أن

يكل رئاسة الحملة هذه المرة الى انجليزى « ماك كيلوب باشا » رئيس مصلحة المنارات ، بدلا من أمريكى ، عل انجلترا تسكن اليه وتهدأ ثائرة أطماعها .

على أن ذلك لم يمنع اسماعيل من مراقبة ماك كيلوب باشا بواسطة شاييه لونج الأمريكى الذى أشركه معه فى الحملة وبواسطة كبار القواد والمهندسين المصريين أمثال رضوان باشا حاكم بربرة الذى كان قائدا لمركبين حربيين وجمالى باشا وعبد الرزاق نظمى وحسن واصف وغيرهم .

وقد وصلت الحملة بربرة فى أواخر سبتمبر ثم اتجهت الى رأس حافون حيث وصلت فى ٥ أكتوبر (سنة ١٨٧٥) ، وفى اليوم التالى رفعت الراية المصرية على المدينة فأظهر الأهالى اغتباطهم بحكومة « السلطان اسماعيل » وقد استقبلهم هناك عم السلطان بتلك الجهة وقدم فروض الطاعة . ومن هناك ساروا الى براوة فقدم لهم أميرها كل مساعدة ، وقد وصولوا بعد ذلك الى قسمايو التى سميت بورت اسماعيل واحتلوا تلك الجهة بعد طرد الحامية التى كانت فيها من قبل سلطان زنجبار ثم بلغوا نهر الجب فى ٢٧ أكتوبر وأخذ حسن واصف فى اكتشاف ما وراء النهر باعتباره جزءا من بلاد السومال ورسم خريطة للنهر .

جاء فى ملحق تقرير « عن حوادث مأمورية سواحل أفريقيا الشرقية مقدم من عبد الرازق بك رئيس أركان حرب المأمورية وناظر المدرسة الحربية » مؤرخ فى ٨ ذى القعدة سنة ١٢٩٢ هـ (٦ ديسمبر سنة ١٨٧٥) : ثلاث وقائع هامة مرتبطة بعضها ببعض : الأولى أن ماك كيلوب باشا وفريد ريجو باشا والكولونيل ورد بك قاموا على رأس قوة لاستكشاف جهة لامو وفرموزة » — لامو وجزيرة فورموزة فى طريق مومباسة — وأن أحد أمراء جزر القومور « أخبر بوجود معدن فحم حجرى ونحاس غربى مومباسة وأن أهالى تلك الجهة يودون التتبع للحكومة المصرية » .

والثانية أن الأمير محمد نجل السلطان عبد الله سلطان جزيرة جوهنه والأمير محمد نجل السلطان عبد الرحمن من جزيرة حنزوان ومعه كتاب من سلطان جزيرة القومور الكبرى عن رغبتهم التتبع للحكومة المصرية ، وكذا جزيرة مُهلة وبندر منياص « وصلوا قسمايو بقصد التوجه الى المحروسة فى ظل الحكومة الخديوية » .

وهذه الجزائر المختلفة تسمى جزائر القومور (Comore) وهى واقعة فى الشمال الغربى من جزيرة مدغشقر .

وقد روى شاييه لونج فى كتابه (حياتى فى أربع قارات) أن بسيد على أخ السلطان عبد الله الذى كان حاكما على جزر القومور جاء يقدم الى مصر التاج الذى اغتصبه عبد الله وأن هذه الجزر قد وضعت فيما بعد تحت حماية فرنسا وصار الأمير على سلطانا على جزيرة قومور الكبرى .

ولاشك أن هذه الواقعة تبين الى أى حد بلغ نفوذ مصر الأدبى والسياسى فى أفريقيا خصوصا فى الأصقاع العربية .

أما الواقعة الثالثة فهى وصول كتاب من قومندان براوة يقول : « أنه بتاريخ ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٧٥ وصلت سفينة حربية انجليزية بالقرب من براوة وان قومندان السفينة يصحبه أحد القناصل الانجليز وترجمان وبعض الجنود الانجليز أرادوا النزول الى البر ولكن اليوزباشى قومندان براوة أفهمهم أنه لا يستطيع الاذن لهم بانزال جنود مسلحين على أرض تحتلها القوات المصرية » وانه بتاريخ أول ديسمبر سلم أحد ضباط السفينة خطابا الى اليوزباشى يبلغه فيه « انه لم يمنع قط من قبل من انزال جنود مسلحين فى هذه المناطق » فرد اليوزباشى « أن هذه البلاد أصبحت تابعة لمصر » عندئذ غادرت السفينة براوة قاصدة زنجبار . وجاء فى الختام « ان هذه السفينة كانت مكلفة بقمع تجارة الرقيق على سواحل أفريقيا الشرقية » .

والواقع أن براوة وقسمايو كانتا تابعتين اسما لسلطان زنجبار الذى احتج على احتلال مصر وقد بادرت انجلترا بتأييده والتدخل فى القاهرة ونجحت فى حمل اسماعيل على ارجاع حملته .

اضطرت القوات المصرية الى الانسحاب دون أن تتمكن من وصل هذه الأقطار بالبحيرات وتدعيم نفوذ مصر فى جميع مناطق السومال .

وقد قام رؤساء الحملة ومهندسوها وبالأخص عبد الرزاق بك بأعمال جليلة فى أمد قصير .

كتب رضوان باشا الى مهردار الخديوى فى ١٨ شوال سنة ١٢٩٢ هـ (٢٨ نوفمبر سنة ٧٥) مشيرا الى هــذه الأعمال فى منطقة نهر الجب فذكر انشاء بستان مساحته فدان وقال ان الأشجار كثيرة على ضفاف النهر وأن خشبها يشبه الخشب الذى يرد من تركيا وطلب ارسال حطابين ونجارين وبنائين لتشييد بيوت من الحجر .

وفى ١٤ نوفمبر استقبل ماك كيلوب فى قسمايو ٢٠٠ من عقال وسكان أوجادين الذين أظهروا اغتباطهم وفرحهم بالحــاق بلادهم بالحكومة المصرية . وفى اليوم التالى وصل من سكان الجب وبراوة خطاب ممضى من عثمان شيغو وعلى القاضى والحاج محمد بن عبد القادر ومحمد بشير يقولون فيه انهم كانوا منذ ثمانية أعوام فى نزاع مستمر مع قبائل كبلالة وهرات وانهم يريدون الآن أن يعيشوا معهم على سلم وصفاء كاخوة . وفى الغد (١٦ نوفمبر) اجتمع على ظهر الباخرة محمد على عقال وشيوخ قبائل تونة وكبلالة وهرات وبراوة والجــزر التابعــة لتونة . روى عبد الرزاق نظمى فى يومياته : « وقــد أصلحنا بينهم وأقسموا جميعا على المصحف والسيف أن يظلوا متحدين وأن لا يهاجم بعضهم بعضا وأن يظل كل فريق منهم فى دياره يعمل على رفاهيتها وزراعة أرضها فى ظل الحكومة الخديوية . وقــد حلفت هــذه اليمين بحضــورنا أمام

ماك كيلوب ورضوان باشا وعلى بك شكرى قومندان المركب وآخرين من الضباط » .[1]

وكتب ماك كيلوب باشا فى ١٤ ذى القعدة (١٣ ديسمبر سنة ١٨٧٥) يقول ان عبد الرزاق بك يطلب ثلثمائة واثنى عشر رجلا من جميع الحرف والمهن من أطباء ومهندسين ونجارين وزراع وخبازين وذكر أشياء أخرى كثيرة لترقية المدائن .

هذه لمحة تكشف عن سياسة المصريين واتجاهاتهم العمرانية فى جميع مناطق البحر الأحمر والمحيط الهندى .

ومعلوم أن سلطان زنجبار مدين لانجلترا بالتخلص من التبعية لامام مسقط ، وكان الانجليز الآمرين الناهين فى الجيش والبريد وكان ممثلهم يوحنا كيرك مستشار السلطان برغش السياسى (١٨٧٠ — ١٨٧٨) . وبواسطة زنجبار كانت انجلترا تريد الاحتفاظ بأفريقيا الشرقية فى دائرة نفوذها .

ابتدعت سيدة البحار وسيلة جديدة تساعدها على انتهاج سياسة تدخل فى بحار أفريقيا الشرقية . ذلك أنها تحت ستار « مصالح الانسانية » أعلنت حربا لاهوادة فيها على تجارة الرقيق وأرغمت مصر وزنجبار ، فى سبيل القضاء على هذه التجارة ، على قبول شروط ومواثيق لاتتلاءم مع استقلالها .

وقد فاتح السير اليوت سفير انجلترا فى الآستانة نوبار باشا أثناء وجوده بهذه المدينة فى عقد اتفاقية لالغاء النخاسة ولكن وزير مصر لم يوافق عليها خوفا من نتائجها واحتذاب « الزنابير الحمر الانجليزية الى سواحل مصر وحصونها » .

ولكن انجلترا تمكنت فى النهاية من حمل اسماعيل فى ٤ أغسطس

(١) من يوميات عبدالرازق نظمى بتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥ (سجلات عابدين) .

ماك كيلوب ورضوان باشا وعلى بك شكرى قومندان المركب وآخرين من الضباط » .[1]

وكتب ماك كيلوب باشا فى ١٤ ذى القعدة (١٢ ديسمبر سنة ١٨٧٥) يقول ان عبد الرزاق بك يطلب ثلثمائة واثنى عشر رجلا من جميع الحرف والمهن من أطباء ومهندسين ونجارين وزراع وخبازين وذكر أشياء أخرى كثيرة لترقية المدائن .

هذه لمحة تكشف عن سياسة المصريين واتجاهاتهم العمرانية فى جميع مناطق البحر الأحمر والمحيط الهندى .

ومعلوم أن سلطان زنجبار مدين لانجلترا بالتخلص من التبعية لامام مسقط ، وكان الانجليز الآمرين الناهين فى الجيش والبريد وكان ممثلهم يوحنا كيرك مستشار السلطان برغش السياسى (١٨٧٠ — ١٨٧٨) . وبواسطة زنجبار كانت انجلترا تريد الاحتفاظ بأفريقيا الشرقية فى دائرة نفوذها .

ابتدعت سيدة البحار وسيلة جديدة تساعدها على انتهاج سياسة تدخل فى بحار أفريقيا الشرقية . ذلك أنها تحت ستار « مصالح الانسانية » أعلنت حربا لاهوادة فيها على تجارة الرقيق وأرغمت مصر وزنجبار ، فى سبيل القضاء على هذه التجارة ، على قبول شروط ومواثيق لاتتلاءم مع استقلالهما .

وقد فاتح السير اليوت سفير انجلترا فى الآستانة نوبار باشا أثناء وجوده بهذه المدينة فى عقد اتفاقية لالغاء النخاسة ولكن وزير مصر لم يوافق عليها خوفا من نتائجها واحتذاب « الزنابير الحمر الانجليزية الى سواحل مصر وحصونها » .

ولكن انجلترا تمكنت فى النهاية من حمل اسماعيل فى ٤ أغسطس

(١) من يوميات عبدالرازق نظمى بتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥ (سجلات عابدين) .

اعترض غردون على هذا الطلب مراعاة لمصالح مصر التى ما كان فى وسعها أن تخمد ثورة يثيرها أبو بكر فى ذلك البلد القصى .

فلما رأى ملكولم أن غردون يقف فى سبيله وان الحكومة المصرية فطنت لأغراضه التى ترمى الى الجرى على سياسة العنف والارهاق لبذر بذور الفتنة والاستياء فى أقطار مصر النائية أظهر استعداده للاستقالة منذ شهر مارس أى بعد ثلاثة أشهر من تولى وظيفته .

علم بذلك وزير خارجية انجلترا فكتب الى قنصلها فى مصر فيفيان بتاريخ ٢ أبريل سنة ١٨٧٨ يقول : « سيكون من دواعى الأسف البالغ أن يضطر ملكولم الى التخلى عن منصبه اذ لايخفى عليكم أن فى وجود موظف ذى حزم وعزم لا ينى ولا يكل فى محاربة تجارة الرقيق الأمل الوحيد فى القضاء عليها قضاء مبرما لاسيما فى بلد تتغاضى فيه السلطات جميعا عن النخاسة والنخاسين [١] » .

وقد كانت الحكومة الانجليزية تميل بالطبع الى التهويل من شأن النخاسة وانتشارها فى البحر الأحمر وذلك على الرغم من أن القبطان ملكولم نفسه أعلن فى تقرير له أن مجموع العبيد الذين يصدرون سنويا من الساحل الافريقى الى الساحل العربى لايزيد عن ١٧٠٠ ، وهذا العدد أقل بمراحل من ٣٠,٠٠٠ وهو العدد الذى وضعه نائب القنصل وايلد وتقدمت به الحكومة الانجليزية [٢] » .

أما فيما يتعلق بعزم ملكولم فقد كشف غردون عن مكنونهما . كتب فيفيان الى حكومته بتاريخ ٢٩ مارس سنة ١٨٧٨ يقول : « ان الكولونيل غردون كان يخشى أن تؤدى كل محاولة تعمل دفعة واحدة بغير روية وأناة لتنفيذ المعاهدة الى هدم كل عمله الشاق فى السودان

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٨٤ مجلد ١٥١١ .

(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٨٤ مجلد ١٥١١ . خطاب من فيفيان الى حكومته بتاريخ ٢٢ مارس سنة ١٨٧٨ .

ذلك العمل الذى ينشئه بوسائل ناقصة مستعينا فيه بمصانعة الأهالى والترفق عليهم وحساب ألف حساب لمعتقداتهم الدينية الوراثية .

« وكان يخيل الى غردون أن انجلترا قد فرضت المعاهدة فرضا على الخديوى وأننا فرضنا عليه هو (غردون) بعد ذلك القبطان ملكولم كشبه جاسوس واننا لم نكتف بذلك بل أثقلنا ميزانية السودان بحمل نفقات هذا الموظف الذى لم تكن له حاجة اليه [1] » .

والواقع أن غردون رجل غريب الأطوار تجتمع فيه الأضداد ينزو ويلين وقد ينزو ولا يلين وقد يلين طويلا ثم ينزو وبين هذا وذاك تتجاذبه عوامل مختلفة مدا وجزرا من نزاهة أصيلة فى الطبع وسياسة أجنبية تريد أن تملى عليه خدمة مصالح معينة يستقبلها كما يستقبل الحرباء الشمس ويدور معها كيف دارت .

وهذا مايفسر لنا سر اضطراب سياسته وحنق معظم الساسة الانجليز الرسميين عليه . وقد أبدت الحكومة الانجليزية استياءها من مسلك غردون ازاء ملكولم فكتبت الى قنصلها ، فى ٣١ مايو سنة ١٨٧٨ ، تقول : « ان الكولونيل غردون يسوف ويهادن النخاسين كمن لايحس فى نفسه القوة الكافية لمناصبتهم العداوة » .

ظاهر من هذا التحريض ما ترمى اليه الحكومة الانجليزية فى حالة اضطرارها الى التضحية بملكولم . وفعلا استقال ملكولم فى يونية سنة ١٨٧٨ فبادر القنصل فيفيان بناء على تعليمات حكومته الى التصريح بأن « الخديوى وغردون يجب أن يكونا مسؤولين عن الاجراءات الناجعة الواجب اتخاذها للقضاء على النخاسة التى لايزال شرها مستفحلا فى مين سواكن وزيلع وتاجورة [2] » .

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٨٤ ، مجلد ١٥١١ .

(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية ، رقم ٨٤ مجلد ١٥١١ ، الاسكندرية فى ٩ يونيه سنة ١٨٧٨ .

وسنرى ، فيما بعد ، انه ابتداء من ذلك الوقت (يونيه سنة ١٨٧٨) سيجرى غردون فى السودان على الرغم منه على سياسة رسمتها له انجلترا وسيقيم فى أرجائه الواسعة حكومة حرب وارهاب .

الواقع أن غردون وبيكر وملكولم قد فرضتهم انجلترا على اسماعيل فى السودان . ومن حسن الحظ أن اسماعيل قد فطن الى مرامى السياسة الانجليزية فعمل جهده ، ولم يلن ، فى الاحتفاظ بالمناطق النائية الممتدة من بربرة الى هرر للحكام المصريين وللادارة المصرية البحتة التى ظلت تعمل فى صمت على احياء هذه البلاد وفتح سبل المدنية فيها .

* * *

من بربرة أخذت الحضارة المصرية توغل فى البلاد وكان أول عناية رضوان باشا مأمور بربرة وزيلع وملحقاتهما توطيد الأمن فكانت الحكومة المصرية ترسل الى بربرة مركبا حربيا يرسو فيها طوال فصل الشتاء وكان قائد المركب مسئولا عن النظام فى المدينة .

وعلى ظهر هـــذا المركب كان يقيم جماعة من المهنـــدسين المصريين كعبد الرازق نظمى ومحمد بهرام الذى خلفه لاستكشاف ما وراء الميناء ، وقد عنوا بادىء ذى بدء بدرس الينابيع والمجارى القديمة التى عفى عليها الزمن ورسموا خرائط وافية للمناطق الداخلة وأعدوا تصميمات لاستحداث مجار ومدينة جديدة منفردة عن منزلة العشش .

فى ظرف خمسة أعوام ، من سنة ١٨٧٢ الى سنة ١٨٧٧ ، نشأت بالقرب من الشعب أو القرية القديمة المدينة التى أسسها المصريون ، فيها منارة تهدى السفن ، وفيها مراس وأرصفة من الحجر ، وفيها مخازن مشحونة بالفحم لتموين المراكب البخارية ، وفيها بيوت منتظمة وشوارع مصفوفة نظيفة لا أثر فيها للأقذار المتراكمة التى كانت مصـــدر أوبئة وأمراض ، وفيها بستان جميل وجامع فخم .

وقد فاض الماء الحلو فى أرجائها آتيا من جبل الدوبار فى مواسير

ممدودة ، ولما كان الماء عند تفجره من الصخر فى سفح سلسلة الجبال البحرية ترتفع درجة حرارته ارتفاعا كبيرا بنيت صهاريج لتبريده قبل مروره من السهل الى الخزانات ، ولا يزال الحصن القديم الذى بناه المصريون فى الدوبار يحرس المنبع الى اليوم .

وكان فى المدينة مستشفى ، كما كان الأمر فى زيلع ، وصيدلية ، ومخابز وطواحين ومكتب بريد ضمن حدود اتحاد البريد العام ، ومصابيح مضيئة بالغاز كنظائرها بمصر وشوارع الأزبكية ، وانتشرت العملة المصرية وشاع أمرها بالقرى والجبال على مسافة ثلاثين يوما فأقبل عليها التجار للتعامل بها .

وبالجملة صارت بربرة مناء تتضاءل أمامه عدن ، وقد اعترف هنتر قنصل انكلترا فى السومال فى رسالة مؤرخة ٦ يونيه سنة ١٨٨٤ بأن المصريين « أنجزوا فى بربرة من الأعمال العمومية الأساسية ما يصح أن تفاخر به أية ادارة » .

وقد بلغت تكاليف المبانى فى بربرة لغاية سنة ١٨٧٧ زهاء ٧٠,٠٠٠ جنيه عدا أربعين ألف جنيه أنفقت على الجنود والسفينة المرابطة بالميناء .

ولما أرغم الانجليز اسماعيل بمعاهدة ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ على جعل مينائى بربره وبلهار حرين أعفيت صادراتها من الرسوم والعوائد الجركية فأصبح دخل المدينة لايزيد عن ١٧٠ جنيها فى السنة مع أن المركب الحربى وحده كان يكلف الحكومة ٣٠٠ جنيه فى الشهر .

كانت بربرة تصدر الى عدن فى العام ١٠,٠٠٠ بقرة و ٦٠,٠٠٠ خروف عدا الزبدة . كتب رضوان باشا الى المعية السنية فى ١٢ شعبان سنة ١٢٩٣ (٢ سبتمبر سنة ١٨٧٦) يقول : « انه قبل مجىء المراكب الخديوية الى هذه الأصقاع كانت عدن فى ضيق مستمر طوال أشهر الخريف من مايو الى سبتمبر وذلك لأن الزبدة والأبقار والخرفان كان

من الصعب شحنها على مراكب صغيرة بسبب هبوب رياح الشمال العواصف ، وكان ثمن رطل اللحم فى عدن خمسة قروش وكانت الزبدة لا وجود لها بالمرة ولكن بعد احتلال المصريين ومرور مراكب البريد المصرية فى مياهها أصبح من الميسور ارسال الزبدة والبيض والغنم والأبقار الى عدن فى كل وقت وصار ثمن رطل اللحمة قرشا واحدا وكثرت الزبدة » .

وقد ترتب على انتشار المعاملات طبقا للأحكام السياسية والشرعية وازدياد العمران والأمن والراحة أن قبيلة عيال أحمد السومالية التى كانت كغيرها لا تقيم فى بربرة الا فى فصل الشتاء أخذت تبنى بيوتا ودكاكين تقضى فيها العام كله .

ولا ريب أن استقرار السومال فى بربرة بعد حياة التنقل والقتال يذكرنا سياسة ابراهيم باشا فى سوريا اذ كان أكبر همه تثبيت البدو الرحل وتحضيرهم حتى تتغير طباعهم ويجدوا فى الزراعة والعمران معاشا لهم .

كتب جبرائيل فيران ، الذى كان قنصلا لفرنسا ثم وزيرا مفوضا ، على أثر زيارة عملت فى سنة ١٨٨٣ : « أنشأ المصريون فى بربرة بمعزل عن الحى الوطنى مدينة أفريقية صغيرة عليها نضرة ونعيم ، وأتوا بالماء من جبل الدوبار الذى يبعد اثنى عشر كيلو مترا من الساحل وأقاموا مبانى من محافظة ، ودار للشرطة وسجن ، وبيت للحاكم على الطراز الأندلسى بداخله حديقة لاقامة الزوار الغرباء ، وكان أسلوب البناء مطابقا لمقتضيات الجو وحره المستعر ،

« وكانت العناية توجه كل يوم لتنضير قطع الرياض والزهر وزراعة الخضروات طوال السنة ، وكان فى الميناء منارة تبدو على بعد خمسة عشر ميلا ورصيف يسمح بتفريغ وشحن المراكب الكبرى وتزويدها بالماء .

« ولا ريب أن هذا العمل يدعو الى الاعجاب لاسيما اذا تذكرنا أن

الذى قام به حاكم شرقى وأن بربرة كانت تملك وقتئذ موارد واستعدادات للتموين أعظم ألف مرة من موارد واستعدادات جميع موانى أفريقيا الشرقية من السويس الى موزانبيقة فى متسع من الساحل لا يقل عن سبعة آلاف كيلو متر » .

وقد زار بربرة كاتب انجليزى ، مستر جيمس ، فى مارس سنة ١٨٨٤ وكانت لاتزال تقيم بها حامية مصرية ، ثم عاد فزارها فى شهر نوفمبر ، وكان قد أخلاها المصريون فأتيح له أن يحيى الراية الانجليزية « التى كانت تخفق على أنقاض الادارة المصرية السيئة » ولكن المؤلف قد تناقض نفسه بنفسه اذ وصف بربرة فى مكان آخر من كتابه فقال : « ان المدينة الحديثة قد بلغت من الحسن والتأنق حدا لا زيادة فيه لمستزيد ... كانت دار الحاكم السابق يزينها روض نضير ترويه « فسقية » ذات روعة بنيت بضروب مختلفة من المرجان ... وتوجد منازل مصرية بهيجة .

« وقد زرنا احدى هذه الدور التى كانت فى الأصل مخصصة للحاكم فلما ألقينا فيها رحلنا خيل الينا أننا نقيم فى منزل من منازل الرومان فى عصر بومباى ، بصحنه وبستانه والرواق الذى يحيط به ويوصل الى الشقق المختلفة والى حمام فسيح فى أكمل حال » .

وقد أدخل المصريون تحسينات كثيرة على ميناء بلهار حيث ظلت فى مكان المدينة الجديدة بعض العشش من الحصر لغاية الاحتلال المصرى للسواحل بعد سنة ١٨٧٠ . وسرعان ما أنشأ المصريون منارة فى أعلا دار اقامة الحاكم وأربع بنايات عمومية أهمها مبنى الجمرك الذى كانت ترد اليه البضائع من الداخل لتصديرها . وقد شيد أيضا بالحجر بيتان صغيران لسكنى موظفى الحكومة .

وكان المصريون يقيمون فى بلهار طوال الفصل المعتدل حتى اذا أقبل الخريف المزعج الذى يغطى البيوت بالرمل هاجروا الى بربرة [١]

(١) D. Brockman, British Somaliland, 1912.

استحدثت اصلاحات فى زيلع ولكن أهميتها التجارية لم تتحقق لأنها الميناء الطبيعى لمملكة شوا الحبشية فكان لا بد من فتح طريق القوافل الذى يمر بأوسه الى شوا بين قبائل الدناكل الغادرة المنتشرة على ساحل البحر الأحمر من مصوع الى باب المندب ومنه ينتشر السومال الى المحيط الهندى . على أن حملة مونتسنجر لم تنجح فى الاستيلاء على هذه البلاد اذ تمكن شيخ أوسه وحلفاؤه الأحباش من استدراجه فى الصحارى وقتله غيلة عند بحيرة أوسه فى نوفمبر سنة ١٨٧٥

وقد انتعشت تجارة زيلع قليلا بفضل احتلال هرر واستتباب الأمن والمواصلات بين الميناء والبلاد النائية فى محيطه .

* * *

من زيلع نزل محمد رؤوف باشا ، فى ١٧ سبتمبر سنة ١٨٧٥ ، على رأس جيش مصرى لاحتلال هرر وقد اخترق أراضى السومال ولم يلق صعوبات فى طريق زحفه الا ابتداء من جورجورا على حدود النولى — جالا حيث يصير الطريق دربا ضيقا يشرف عليه الجالا من عل . ولكنه مزق شملهم ودخل مدينة هرر فى ١١ أكتوبر ورفع الراية المصرية عليها بين تهليل السكان وتكبيرهم ، وكانت المدينة تئن تحت ظلم أميرها محمد عبد الشكور منذ عشرين سنة فانتظم أمرها وأخذت تستقبل عهدا جديدا . ويحسن بنا هنا أن نذكر كلمة عن تاريخ مملكة هرر .

انتشر العرب فى أفريقيا الشرقية فى أواخر القرن السابع وقد أسس مدينة هرر جماعة نزحت من حضرموت أو اليمن ثم قامت دولة عادل الشامخة وكانت زيلع عاصمتها ، وكانت بربرة التى أسسها البطالسة قديما جزءا منها فى القرن الثالث عشر ، وكانت دولة عادل بفضل مناعتها تُدل على الحبشة المسيحية وتنافسها فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

ولما ملك الأتراك فى القرن السادس عشر مصر وبلاد العرب احتلوا جميع السواحل فانتقلت عاصمة الملك من زيلع الى هرر فى سنة ١٥٢١

ثم أخذ الأتراك يمدون اخوانهم فى الدين بالمدافع والأسلحة وكان البرتغاليون يتزحون من الهند لنصرة الأحباش وقد تمكن سلطان هرر من الاستيلاء على معظم الحبشة ولكنه هزم فى النهاية ، من ذلك الوقت (١٥٥٣) أخذ الاضمحلال يدب فى دولة عادل القديمة .

وكان يحكم هرر فى أواخر القرن السادس عشر وطوال القرن السابع عشر أمراء من أشراف مكة وقد أخذت حدود الأمارة تضيق حتى انحصرت فى جدران المدينة فبعد أن كان أمير هرر يسيطر على قبائل الجالا والسومال المنتشرة بين المدينة والساحل صار عرشه تحت رحمتهم ؛ وكان يظلم المدينة ويستعدى عليها حلفاءه الجالا ليؤيدوا سلطته بسلاحهم .

والسومال أمة عربية تمتد مملكتهم الواسعة داخل مثلث قاعدته جبال الكافا أو خط وهمى من خليج تاجورا الى نهر تانا وضلعاه ساحل خليج عدن (١١٠٠ كيلو متر) وساحل المحيط الهندى (٢٢٠٠ كيلو متر) .

وهى مملكة غنية بمواردها من صمغ ومر وبخور ومطاط وخيل وأنعام لا عدد لها بفضل جبالها وسهولها ومراعيها الزاهية وشجرها ، أهم أنهارها الجب الذى ينبع فى هضبة الجالا ؛ وهى على اتصال بمملكة شوا الحبشية وهضبة هرر الخصيبة .

والسومال قوم أشداء رحل بطبعهم يعيشون من تربية الأنعام والتجارة ولكن نزوعهم الى النهب والسلب كان سببا فى كساد التجارة فى بلهار وبربرة .

تنقسم قبائلهم الى جماعات أربع :—

الجماعة الأولى — جماعة الشمال أهم عشائرها حبر أول وعيسى والجادا — بورسى ويبلغ عددها زهاء ١٣٠,٠٠٠ جميعهم مسلمون أميون . والثانية جماعة هرر ، والثالثة سومال الأوجادين وهى واقعة فى داخل السومال لم يدخلها أوروبى لغاية سنة ١٨٨٣ ، وكان فى كل قبيلة أدباء وشعراء

يرتجلون الشعر . والرابعة – جماعة الجنوب أو ساحل بنادر كانت منتشرة على جوانب نهر وبى ومنطقة الجب السفلى .

وتمتد أرض الجالا فى الشمال الشرقى من بحيرة فكتوريا بين هضبة الحبشة فى الشمال ومملكة السومال فى الشرق وبلاد العروس وبوران فى الجنوب .

وكان تعداد الجالا يزيد على العشرة ملايين وهم أكثر الأجناس الأفريقية بهاء وروعة ، رآهم المبشر « كرابف » فأعجب بطلعتهم الحربية وطول قامتهم ، وهم وثنيون أذكياء يقيمون حول هرر فى المناطق الجبلية الخصبة ولهم فيها مراع نضرة وأنعام كالهياكل .

وهم قوم ذوو شجاعة واقدام يتجمعون فى المكان الوعر من أعالى الجبال للبطش بأعدائهم ، كانوا يقطنون سواحل خليج عدن فى القرن الخامس عشر ولكن حروب الغزو والفتوحات جرتهم الى مملكة شوا وجنوب الحبشة حيث أقاموا ثم ما لبثوا أن احتلوا حوالى سنة ١٧٠٠ هضبة هرر فأذلوا أميرها وأرهقوا القوافل .

وينقسم جالا هرر الى جماعات ست : النولى ويقيمون فى الشمال بين محطة جلديسة وهرر فى بلاد جبلية غزيرة الأمطار يترعرع فيها القمح والأذرة ، وقبائل الجارسو فى شرق هرر والآلا فى جوارهم وفى الجنوب والغرب ، والعروس والأنبيا فى الجنوب ، والايتو فى الغرب .

وكانت كل قبيلة تنقسم الى أفخاذ وبطون وفصائل لا حصر لها شأنهم فى ذلك شأن السومال الذين بدلا من أن يؤلفوا خمس قبائل كبرى متجانسة كانوا موزعين بين خمس وثمانين قبيلة .

ولا ريب أن تكاثر العشائر ، وتضاؤل مملكة هرر بينها وانتشار الجهل والبدع والفوضى فى جميع الأرجاء كانت أكبر عوامل الاضمحلال .

لم يكن هناك أثر للصناعة لأن حاجات القوم فى المسكن والملبس

والمأكول محدودة . وقد كانت هرر المدينة الوحيدة المبنية بالحجر ، وكانت الزراعة لا تزيد عن حاجة المراعى وقد اقفرت أراض واسعة صالحة للزراعة بسبب الاهمال .

وكانت التجارة المرتزق الوحيد وكانت مقصورة على فصل الشتاء : ذلك أن معظم السومال والجالا كانوا يقيمون فى الصيف على الهضاب يتمتعون بجوها المعتدل ويرعون قطعانهم الضخمة من غنم وأبقار وخيول وبغال حتى اذا جاء الشتاء وقف هطول الأمطار على الهضاب العالية واستمر فى الأراضى السفلى منذ أواخر سبتمبر ، فيبرد الجو ويزكو النبات ، وحينئذ يطمئن التاجر الى توفر الماء والعشب فى الطريق للسائمة فيرحل قاصدا ميناءى بلهار وبربره زمن الموسم .

وكانت ريح الشتاء تساعد السفن الشراعية من ناحية أخرى على اجتياز البحر والوصول الى الموانى ، وكانت بربره الميناء الطبيعى لهرر والأقاليم المجاورة وخير مرسى للسفن ولذلك كانوا يقولون : « ان الذى يهيمن على بربره يمسك بيده ذقن هرر » .

كان تجار الداخل يفـدون من جهة الحبشة وهرر الى بربره باللبن والعاج وريش النعام والجلود والصمغ والغنم والأبقار والزبدة وكانت السفن الآتية من عدن وحضرموت ومسقط واليمن تحمل الأرز الهندى والبلح والأقمشة القطنية والدخان والحديد والنحاس والسكر والشاى والأنبـذة ، وكان التعامل من طريق المقايضة لأن العملة كانت قليلة الاستعمال .

ولكن عـدم توفر الأمن كان من شأنه شـل الحركة الاجتماعية والاقتصادية فان القوافل الآتية من الداخل كانت تدفع الضرائب الفادحة لأمير هرر والقبائل التى تمر بها ، وكان تجار الخارج هدفا لقبائل الساحل التى كانت ترغم كلا منهم على اصطحاب رجل من العشيرة يسمى « القبان» كان يقاسمه ربحه نظير حمايته له .

وكانت البضائع أحيانا — بدلا من أن تصل من هرر الى الساحل فى خمسة عشر يوما — تقطع الطريق فى عام ونصف أو عامين مما أدى الى تدهور زيلع وبلهار وبربره .

وكانت بربره — كموانى الساحل كلها — مجموعة عشش أو بيوت من الخشب ، مقفرة فى فصل الصيف موحشة لا تعرف الحياة الا أشهر الشتاء الستة اذ يبلغ عدد السكان من ٢٠ الى ٢٥ ألفا .

الاحتلال المصرى — كان الاحتلال المصرى لهرر فى الداخل بعد احتلال الساحل ذا أثر بعيد فى حياة البلاد .

تقع مدينة هرر فى سهل مخصب تطالعه من كل جانب تلال مخضرة تعلوها خمائل البن والقات ، يبلغ سكانها ثلاثين ألفا وكلهم مسلمون على مذهب الشافعى .

كان أمير هرر محمد بن عبد الشكور كما قلنا مستبدا برعيته يحرم أكل الأرز والبلح والثريد بحجة أن أمثال هذه الأطعمة اللذيذة من حق الملوك وحدهم وكان يحتكر تجارة العاج وريش النعام والبن الذى هو أعلى من البن اليمنى يزكو زرعه فى ضواحى المدينة ولكن فى أراضى الأمير وحدها وأراضى أعوانه .

وكان يحرم على السكان أن يغطوا رؤوسهم وقاية من البرد أو الحر . وبلغ من تعسفه أنه اذا هم بالبصق تسابق الحضور الى تقديم كم قميصهم .

وقد ألغى رؤوف باشا الحكر كلها وبدأ يعنى بترقية الزراعة فزار البلاد المختلفة وتبين له أن نصف الأراضى التى كانت تملكها القبيلة الواحدة كان مزروعا والنصف الآخر الذى هو أصلح للزراعة كان متروكا فحث الأهالى على الزراعة وكان يلجأ الى القوة أحيانا ليرغمهم عليها . وقد وزع الأراضى بينهم فكان الجراد (أو العمدة) يفد عليه ويقدم له خمس بقرات كضريبة فيمنحه قفطانا من الشيت وطاقية وعمامه

من بفتة بيضاء ويرسل معه مندوبا من قبله يحدد له ألف فدان لاستثمارها وكان الملاق (أو شيخ البلد) يحضر بقرتين فيعممه بأربعة أذرع ويحدد له خمسمائة فدان .

وقد دأب رؤوف باشا على محاربة الفوضى والبدع واهراق الدماء فقاتل الجالا مرارا وضربهم بيد من حديد . أما قبائل عيسى السومالية المسلمة فقد عمل على تأديبهم بمحاربة الأمية الفاشية بينهم وبث تعاليم الاسلام الصحيحة .

كان السومال يفاخرون بقتل الجالا غدرا وكانوا كلما وفقوا الى ذلك غرسوا فى شعورهم ريشة نعام بيضاء تقوم مقام الوسام . ولطالما نهاهم رؤوف باشا عن هذه العوائد الهمجية وحاول اعادة الأمن وتسهيل تجارة القوافل فعبد الطريق الذى يصل هرر بزيلع وجعله صالحا للعربات وأنشأ عليه محطات عسكرية مزودة بالماء .

ذكر « بوليتشكا » فى كتابه عن هرر أن انشاء مدينة جلديسا الهامة عند تقاطع طرق هرر وشوا وزيلع فى أراضى عيسى والجادابورسى يرجع الفضل فيه الى المصريين وحدهم وبالأخص مختار بك .

وقد ساعد انشاء المحطات فى تعميم التجارة حتى أن القوافل التى كانت تصل من الساحل الى هرر فى عصر الأمراء وكان عددها لا يزيد على السبعين صار عددها أربعمائة فى السنة فى عهد الادارة المصرية وكان من عوامل انتشار التجارة فى البلاد حلول العملة المصرية محل البدل أو عملة الأمير التى كانت قليلة الانتشار لاقيمة لها .

وقد عنى رؤوف باشا بالصناعة المحلية فكان الحاكم وكبار الموظفين من المصريين يلبسون ملابس مصنوعة فى المدينة ليقتدى بهم السكان فيقتنوا ملابس مفصلة بدلا من الأثواب أو الشقق التى كانوا يتلفعون بها .

وضـــع رؤوف باشا فى الوقت نفســه برنامجا واسعا للمنشآت

اللازمة لتجميل المدينة وتوفير أسباب الرفاهية والعمران فيها واستعان بالجند لتشييد معظم المبانى الحكومية وبيوت الموظفين .

وخلاصة القول أحدث رؤوف باشا ثورة اصلاحية عامة فى هرر فى ثلاثة أعوام . وقد عاد الى مصر فى سنة ١٨٧٨ على أثر خلاف حدث بينه وبين غوردون حكيمدار السودان . وقد خلفه رضوان باشا الذى أنشأ بربره فجرى على سياسة سلفه ، ولما كانت هرر ينقصها الماء الصالح للشرب ابتنى رضوان باشا حوضا فى المدينة جلب له الماء من عين قريبة ووزعه بنظام كامل من المجارى واجتهد فى محاربة تعاطى البوظة وغيرها من المخدرات التى كانت تفتك بالجهاز العصبى والحيوية .

وكان محمد نادى باشا الذى أعقب رضوان باشا فى يونيه سنة ١٨٨٠ حاكما ممتازا وفى عهده عين أحمد بك وعدى رئيسا لأركان حرب الجيش فنجح فى ادخال قبائل كثيرة فى حوزة الحكومة .

زار الرحالة الايطالى « أنطوان سيكى » هرر فى أيام نادى باشا (١٨٨١) فلاحظ رفاهة المدينة وتبين له « أن حالتها المعنوية تطابق حالتها المادية وأن المصريين تبـدو عليهم سيماء الفاتحين الرافعين لواء الحضارة اذ يعلمون الأطفال القراءة والكتابة والفتيان الصلاة والشريعة السمحاء ، ولا ينكر انسان أن الطريقة التى يتعهدون بها الأمن فى المدينة وضواحيها جديرة بكل اعجاب واطراء . ومن التحسينات الكبيرة التى أدخلوها النظام القضائى الذى أصبح — على الضد من نظام الأمراء السابقين — يقضى بالعدل من غير هوادة ولا ابطاء » .

وكان آخر حكام هرر من المصريين على رضا باشا (ديسمبر سنة ١٨٨٢ — أكتوبر سنة ١٨٨٤) ، واليه يرجع الفضـل فى مطاردة المتطببين والمشعوذين .

وسنرى فيما بعد كيف أرغمت انجلترا مصر على اخلاء هرر وبربره

وزيلع فى سنة ١٨٨٤ لتستولى هى على الساحل وميناه وتترك الحبشة تحتل هرر فى سنة ١٨٨٧ .

نتائج الحكم المصرى — فى مدة لم تتجاوز التسعة أعوام فى هرر (١٨٧٥ — ١٨٨٤) والاثنى عشر فى بربرة (١٨٧٢ — ١٨٨٤) وصلت الادارة المصرية البحتة فى هذه الأقطار النائية الى نتائج باهرات لم تبلغ بعضها الادارة المصرية الأوربية فى السودان وقد كانت هذه أجمل صفحة فى تاريخ اسماعيل والحكم المصرى .

وحسبنا أن نذكر أن الزراعة قد امتدت فى مناطق الجالا وظهرت للبن مزارع واسعة باسقات ، وقد عمم المصريون زراعة الكرم واللوز والخوخ والليمون والبرتقال والمشمش والموز وجميع بقول الدلتا وحبوبها من قمح وقصب سكر وبطاطس وقرع وبنجر وشمام وبطيخ وخيار وقثاء .

أجل كان الهرريون لا يجهلون بعض أشجار الفاكهة ولكنها كانت نادرة الوجود فلم يكن فى مملكة هرر كلها حين دخول المصريين الا أربع عشرة كرمة ولم يكن بها خضروات قط .

وقد انتعشت التجارة بفضل ظهور محصولات جديدة فى السوق كالبن والقطن ، وتأمين الطرق وخلق المدن وتوافد التجار الأجانب والعمال الأوروبيين فى داخل البلاد والعناية بتربية الأنعام وانتشار العملة .

ووجدت لأول مرة فى هرر ادارة منظمة وبوليس وجيش وجمرك وقضاء وقوانين ولوائح ، فحتم المصريون اعلان الزواج وتسجيل عقود البيع الخاصة بالعقار والبيوت والبساتين وأنشئت مصلحة للصحة ومستشفى كبير ، وصدرت أوامر تنص على عدم خروج أى جثة من أبواب المدينة دون اعلان السلطات المختصة .

وكان يقيم فى هرر ١٤،٥٠٠ مصرى من مدنيين وعسكريين تزوج منهم

من أهل المدينة واقتنوا أملاكا وأنفقوا ما استطاعوا فى بناء البيوت عملا بأوامر الحكومة التى كانت تريد أن تعطى مثلا للسكان ليتنافسوا فى الأخذ بأسباب العمران ، فلما أخلى المصريون هرر على عجل بيعت أملاكهم بالمزاد فخرجوا صامتين .

ولو دام الحكم المصرى — كما اعترف بذلك قنصل انجلترا فى السومال — لاعتنق الجالا الاسلام ، الذى هو خير ألف مرة من الوثنية ، ولهيمنت مصر على الملايين من قبائلهم المنتشرة فى قلب أفريقيا ، ولو دام ذلك الحكم لانتقل السومال من حالة الفطرة والجهل الى حال أخرى ولدخلوا فى ميدان الحضارة أفواجا ولتحققت أمنية محمد مختار رئيس أركان حرب الجيش المصرى فى بداية الفتح اذ كتب فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٥ متمنيا « أن تؤلف مصر فى ظل حكومة اسماعيل حكومة واحدة من البحر الأبيض الى خط الاستواء وأن تصل مملكة هرر الى أعلى درجة فى الرفاهة والتقدم فى الشرق بعد مصر » .

وقد قام محمد مختار وأعوانه المصريون بأعمال جغرافية جليلة كانت فتحا جديدا ، من ذلك :

أولا — اكتشاف المناطق بين زيلع وهرر ووضع خريطة للمدينة وضواحيها من صنع محمد مختار وعبد الله فوزى .

ثانيا — اكتشاف ومسح المناطق بين بربرة والدوبار ووضع خريطة لها من رسم عبد الرازق نظمى .

ثالثا — اكتشاف المناطق بين تاجورا وبحيرة أوسا بواسطة محمد عزت .

رابعا — اكتشاف مناطق نهر الجب وقسمايو بواسطة صدقى وعبد الرازق وحسن واصف .

خامسا — وضع خرائط متنوعة دقيقة لهرر وملحقاتها عملت بمعرفة أحمد وعدى وعبد الكريم عزت .

وقد اعترف كثيرون من علماء الأجانب بآثار الحكم المصرى . زار المهندس الايطالى بريكيتى هرر سنة ١٨٩٦ ورأى ما آلت اليه حالها فقـال : « ان تباشير العصر الذهبي طلعت على هرر فى أيام المصريين اذ أخذت البلاد تفيق من غفلتها وتحيا حياة جديدة وظهر النشاط فى الأرض فخرجت من غضون الوديان الوعرة جنات فاكهة وحقـول حنطة » .

وكتب (بوليتشكا) النمسوى فى كتاب رحلته يقول : « ان الاحتلال المصرى حادث كبير فى تاريخ هرر وكيف لايكون كذلك وقد تمكن المصريون من ادخال ثقافة شرقية فى بلد همجى ونشروا التجارة وأمنوا السبل وبالجملة أحدثوا انقلابا خطيرا فى أحوال هرر . وان الذى يعرف الشرق — ولا سيما البلاد الافريقية الخالية من أبسط مبادىء الثقافة — لا يسعه الا أن يقرر أن المدنية المصرية تحتل مكانة عالية من المدنية عامة . ومن الثابت أن استيلاء المصريين على هرر وزيلع وبلهار وبربرة وجميع الساحل لغاية رأس جردفون كانت له ، فى مجموعه ، نتائج ثورية لا فى هرر فحسب بل فى جميع القسم الشمالى من أفريقيا الشرقية ، نتائج لا أظن أن احتلالا آخر وصل اليها فى أفريقيا » .

الفصل الخامس

امتداد السودان صوب منابع النيل

أخطأ اسماعيل فى حسابه اذ توهم انه قد يكسب عطف انجلترا ومعونتها فى تنفيذ سياسته الأفريقية بالاستعانة بموظفيها فى حكم السودان وبسط حدوده جنوبا . فالى هذه الادارة المختلطة التى ظلت من سنة ١٨٧٠ لغاية سنة ١٨٧٩ ترجع معظم أسباب ثورة المهدى واضطراب الأحوال فى السودان . وقد هيمنت هذه الادارة أولا على شؤون أواسط أفريقيا وأقاليم خط الاستواء (صاموئيل بيكر ١٨٦٩ — ١٨٧٣ وغردون ١٨٧٤ — ١٨٧٦) ثم على شؤون السودان كافة بتعيين غردون فى وظيفة الحاكم العام (١٨٧٧ — ١٨٧٩) .

ويلاحظ أنه بينما كانت الأمور آخذة فى الاستقرار وحركة الاصلاحات فى تقدم مستمر فى مناطق الادارة المصرية البحتة فى هرر وسواحل البحر الأحمر كانت شؤون السودان المالية والاقتصادية والسياسية والعمرانية فى هذه الفترة فى ارتباك مستمر .

١ — صاموئيل بيكر فى أفريقيا الوسطى (١٨٧٠ — ١٨٧٣) :

يجب أن نذكر أولا أن انجلترا كانت مهتمة منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر بتمهيد سبيل الاستعمار فى أفريقيا بواسطة المبشرين والمكتشفين فكان المبشر الألمانى (كرابف) مندوبا لجمعية المبشرين الانجليزية وهو الذى اكتشف جبل كينيا فى سنة ١٨٤٩ . واكتشف الرحالة

الانجليزى (اسبيك) بحيرة فكتوريا نيانزا (نيانزا بمعنى بحيرة) نسبة الى الملكة فكتوريا (١٨٥٨ م) وهى أكبر بحيرات القارة تقع فى شمالها أوغندة وفى جنوبها أفريقيا الشرقية الألمانية القديمة . ولا تبعد من المحيط الهندى بأكثر من ٦٥٠ كيلو مترا وهى تعد لهذا السبب فى منطقة أفريقيا الشرقية . وقد كانت وجهة اسبيك اليها من طريق زنجبار والساحل وهو الطريق الطبيعى . وقد زار اسبيك فى أثناء رحلته أوغندا وملكها امتيزا .

وكان الرحالة بيرتون Burton يصحب اسبيك فى اكتشافاته وكلاهما كان تابعا لشركة الهند الشرقية ، وقد اشتركا معا قبيل الوصول الى منطقة البحيرات فى اكتشاف هرر وزيلع وبربرة وما اليها .

كل ذلك يلقى ضوءا واضحا على أغراض السياسة الانجليزية المبيتة وعلى بعد نظرها وقدرة منفذيها .

وقد اكتشف بيكر فى سنة ١٨٦٤ بحيرة أليرت أو البيرت نيانزا وهى أهم منابع النيل بعد فكتوريا ، وكانت هذه الرحلة الأولى لحساب الحكومة الانجليزية ، وكان طريقه فى الذهاب والعودة يمر بالقاهرة والخرطوم وغوند وكورو ، وقد زار بيكر مملكة الأونيورو المجاورة لأوغندة ، وزار مليكها .

وظاهر من كتابات أولئك المستكشفين جميعا أن كراهية العرب الذين نزحوا الى أفريقيا وتغلغلوا فيها متأصلة فى نفوسهم سيما وأن أولئك العرب كانوا يمثلون المدنية وسط الهمجية والوثنية بلباسهم وعقائدهم ومعاملاتهم التجارية وصقلهم فكانوا المنافس الأول للأوربى الطامع .

وحسبنا ما كتبه بيكر نفسه فى كتابه (ألبيرت نيانزا) سنة ١٨٦٤ — وقد كان ذلك التاريخ يوازى بداية حكم اسماعيل — ففيه تبدو خطة قديمة معينة لتحقيق أهداف بعيدة كل البعد من الأهداف العلمية

أو الجغرافية البحتة . قال بيكر فى مقدمته : « ان المكتشف يفتح الطريق للمستعمر وأن هذا الأخير بدوره هو الأداة التى يتم بواسطتها بسط المدنية فى العالم » وقال : « ان انجلترا تملك الوسائل التى تساعدها على نشر لواء المدنية وان الطبيعة قد رسمت لها مهمة استعمار العالم » .

وقد حمل بيكر فى غضون كتابه على النخاسة وقال ان تجارة الرقيق مزدهرة فى الصعيد وان مصر لاتعمل على التضييق عليها فى ربوع النيل واقترح أن تمنح الدول الأوربية قناصلها فى مصر والسودان السلطة الكافية للتدخل والاستيلاء على السفن المحملة بالعبيد وتحرير الأرقاء أيا كانوا وقال : « اذا بدأت احداها أسرعت الدول الأخرى الى التدخل حتى تحول بينها وبين الاستئثار بوطأة النفوذ فى مصر » .

فمحاربة النخاسة مبدأ انسانى والكشف عن منابع النيل غرض علمى وتحت ستار هذين الغرضين يجب فتح أفريقيا للتجارة والاستعمار .

فطن اسماعيل الى هذه الأغراض الواسعة البعيدة ففكر منذ سنة ١٨٦٥ فى امتلاك الساحل الافريقى للبحر الأحمر . ولا ريب أن العامل الأول الذى ساعد على سرعة انتشار نفوذ مصر فى هذه الأقطار هو انتشار العرب المسلمين فى داخل أفريقيا وبالأخص على سواحلها الشرقية وقد كان اسماعيل يعلم ذلك تماما ويعلم أن العنصر الوطنى هو العنصر الوحيد الذى يجب أن يوكل اليه مهمة الفتح والتوسع فى أفريقيا لحساب مصر .

ولكن انجلترا لم تكن بغافلة فانها أرادت التدخل كما رأينا تحت ستار محاربة النخاسة وادخال العنصر الأجنبى فى مصر وفتوحاتها ليمهد الطريق لها .

وقد وفد على مصر فى سنة ١٨٦٩ ولى عهد انجلترا ومعه الرحالة بيكر وطلب الى الخديوى تكليف هذا الأخير بمهمة فى أواسط أفريقيا لحساب مصر وكانت أهداف المهمة :

أولا — اخضاع البلاد الواقعة فى جنوب غوندوكورو لحكم مصر .

ثانيا — الغاء تجارة الرقيق واحلال تجارة نظامية مشروعة محلها .

ثالثا — أن تفتح للملاحة بحيرات خط الاستواء الكبرى .

رابعا — تأسيس سلسلة محطات عسكرية ومستودعات تجارية فى أفريقيا الوسطى على أن تكون غوندوكورو قاعدة تموين لها .

وقد وكل اسماعيل بالاتفاق مع ولى العهد الى بيكر قيادة الحملة لمدة أربع سنوات تبتدىء من أول ابريل سنة ١٨٦٩ .

وظاهر أن اسماعيل قد أفهم أن فى مقدور بيكر احتلال جميع بلاد أعالى النيل وتنظيمها وضمها الى مصر فى خلال السنوات الأربع وربما كان ذلك ميسورا لو أن بيكر كان من المنظمين أو لو أن الغاء تجارة الرقيق التى ألفها النـــاس مئات الأعوام وأصبحت جزءا لايتجزأ من نظام حياتهم ومعاشهم كان من طريق آخر غير طريق العنف والطفرة .

وليس أدل على أن روح بيكر كانت روح مغامر خيالى لايعالج المشاكل على وجوهها من أنه كان يعتقد أن مجرد انشاء نقطة عسكرية فى منطقة من المناطق من شأنه القضاء على تجارة النخاسة فى هذه المنطقة .

كانت تجارة العـــاج من العوامل الرئيسية فى تجـــارة الرقيق لأن مطاردة العبيد وحدها كانت لاتأتى بالربح الوفير اذا سيق أولئك الى الساحل فارغى الأيدى فكان التجار العرب أو البرتغاليون فى غزواتهم المسلحة ينتهبون العاج ويحملون الرجال والنساء والأطفال أسرى وعبيدا .

وكان كبار التجار كالعقاد وغطاس وغيرهما بالخرطوم محتكرين لتجارة العاج وكانت لهم منشآت ومخازن أو زرائب بالقرب من بحر الغـــزال ودارفور وكردفان وكان لهم جند وخدم وأتباع وأعوان فى كل مكان فكانت مصانعتهم أمر لابد منه .

وصل بيكر الى الخرطوم فى سنة ١٨٧٠ وبعد أن قضى فيها عدة أشهر غادرها فى ١١ ديسمبر فبلغ غوندوكورو فى ١٥ أبريل سنة ١٨٧١ ، وفى ٢٦ مايو أعلن ضمها رسميا الى مصر وسماها « الاسماعيلية » نسبة الى اسماعيل .

وقد ألف بيكر فيما بعد كتابا خاصا بهذه الرحلة عنوانه (الاسماعيلية أو تاريخ الحملة المرسلة فى أفريقيا الوسطى للقضاء على تجارة النخاسة) .

ظاهر من هذا العنوان ومن كل أعمال بيكر أنه على الرغم من أن القضاء على النخاسة لم يكن الا أحد الأهـداف المرسومة لحملته فقـد تجمعت الأهداف كلها وتضاءلت فى ذلك الهدف وحده وفى وسائل العنف التى اتبعت لتحقيقه .

كان مقام بيكر فى غوندوكورو نذير شر لأنه أساء معاملة قبائل البارى الضاربة حوالى مدينتى غوندوكورو ولادو ، وقد استعان فى قتالهم بطائفة من الجند المصريين المدربين يرأسهم الكولونيل المقتدر عبد القادر بك [1] . ولئن تغلب عليهم فانه لم يخضعهم ولم يكسب مودتهم بعد أن أعمل فيهم القتل والنهب واستولى على قطعان أبقارهم وخرافهم وعلى ذرتهم لتموين جنوده .

من أجل ذلك ظلت الحالة قلقة مقلقة وكان الأجناد عاكفين فى داخل المدينتين لا يجرؤ أحدهم على الخروج حتى لا يعرض حياته للخطر .

كتب جيسى الايطالى الذى صحب غردون خليفة بيكر وهبط مدينة لادو فى أكتوبر سنة ١٨٧٤ يقول : « ان سكان لادو نزلت بهم فوادح كثيرة فى أيام بيكر من ذلك أن بيكر طلع ذات يوم على المدينة وبصحبته ثلثمائة مقاتل وباغت السكان مستوليا على اثنى عشر ألفا من البقر ولم يترك لهم فى الوقت نفسه من الأذرة شيئا . ومن ذلك الوقت ازداد الفقر فى المدينة وكان لابد لها من سنوات طوال تستعيد فيها عدد البقر الذى فقدته وكان المصدر الوحيد لثروتها [2] .

(١) الكولونيل عبد القادر بك غير عبد القادر باشا حلمى وزير السودان وحاكمه بعد رؤوف وغير اسماعيل باشا عبد القادر حاكم سواحل البحر الأحمر وقد كان الثلاثة من العبقريين .

(٢) ظهر بتاريخ ٥ اغسطس سنة ١٨٧٤ مقال فى جريدة « الميل » دفاعا عن بيكر وقد رد على هذا المقال فى نفس الجريدة بتاريخ ١٢ أغسطس مستر وليام « رئيس الميكانيكيين فى حملة البحر الابيض » أى رفيق بيكر بمقال جاء فيه :

« وبصحبتى الآن اسماعيل أغا وهو أحد الضباط الذين أبلوا بلاء حسنا فى عهد بيكر وقد قص على هو وجنوده أعمالا ارتكبها الحاكم العام بلغ من فظاعتها ان القلم لايطاوعنى فى وصفها [1] » .

وفى يناير سنة ١٨٧٢ اتجه بيكر صوب الجنوب . وأنشأ فى أثناء الطريق نقطة عسكرية فى فاتيكو التى كانت مركز النخاسين .

ولما بلغ مازندى عاصمة الأونيورو كان فظا فى معاملة ملكها كباريجا الذى ذهب ليستميله الى الحكم المصرى فحاول أنيسيطر عليه بالخوف وعامله باحتقار ونظر اليه نظرة السيد الى « العبد الخصى » — على حد تعبير الملك نفسه — فانتهز خصومه هذه الفرصة للايقاع به فما كان منه الا أن أعلن رسميا عزل كاباريجا من الملك وضم مملكته (١٤ مايو سنة ١٨٧٢) . على أن ذلك لم يمنعه من الاضطرار عاجلا الى الفرار والعودة بعد تدويخ رجاله وارهاقهم فى بلاد وحروب وعرة .

وقد قام بيكر فى أغسطس بحملة جريئة فى فاتيكو ضد أبى السعود العقاد فتمكن من القبض عليه ومصادرة العاج فى جميع شونه .

عاد بيكر الى غوندوكورو فى أول ابريل سنة ١٨٧٣ اذ ينتهى أمد مهمته وهناك دلف الى القاهرة تاركا القيادة الى رءوف بك (رءوف باشا حكمدار هرر فيما بعد) .

قلنا ان بيكر لا يفكر الا فى العنف وفى وسائله وقد بلغ به الأمر أنه كان يفكر جديا فى انشاء قوة جديدة من عصابات أبى السعود المسلحة يستعين بها فى تحقيق مهمته يتضح ذلك من خطاب هام وجهه

= « اننى افضل عدم ذكر تفاصيل فظائع هذه المجازر التى ارتكبت بكل هدوء . وان طائفة من الهجمات العديدة التى شنت على الوطنيين الآمنين فى ضواحى غوند وكورو قد قام بها صموئيل بيكر شخصيا ، وكان يستولى فى هذه الهجمات على ....٣٠ راس خروف ، ويعمل السلب والنهب فى المساكن ثم يشعل النار فيها . وكانت سرقة البهائم ليس الغرض منها ايجاد غذاء للجنود فحسب بل توزيعها على القبائل الأخرى بشرط أن تنضم الى بيكر وتعمل تحت رايته .. »

(١) أنظر كتاب جيسى باشا (سبعة أعوام فى السودان) الطبعة الانجليزية أو الايطالية .

اليه الخديوى فى فبراير سنة ١٨٧٢ جاء فيه « لقد وصلنى التقرير الذى بعثت به فى أكتوبر من محطة الاسماعيلية حيث وصلت بعد رحلة استغرقت أكثر من خمسة أشهر ... ان المهلة التى منحتها العقاد لمغادرة السودان وترك تجارته فيه قد أوشكت أن تنتهى ومن رأيك ضم رجاله الى جنودك واحلالهم محلهم تدريجا انى أخالفك فى هذا الرأى اذ أن مهمتك فى أساسها مهمة سلام وتقــدم ، انك مكلف باستمالة السكان الى الرجال « البيض » الذين ما دخلوا بلدا من بلادهم الى الساعة الا للقتل والنهب والاستيلاء على الأسرى والعبيد . ان الشقة بينك وبين الخرطوم طويلة صعبة فوطد مركزك ودعمه فى غوندوكورو واجتذب الناس اليك لقد أظهرت بأسك لقبائل البارى فأظهر الآن عدلك نحوهم وترفق عليهم ليطمئنوا اليك والى غاياتك ... كل هــذا العمل المادى والروحانى يتطلب منك وقتا طويلا لا أدرى كم مداه ولكن الذى أعلمه انك متى أديته الى حد ما وأنت مقيم فى غوندوكورو فسينفتح أمامك الطريق الى البحيرات ويصبح ميسرا [1] » .

الفقرات التى نشرناها من هذا الخطاب تدل بصراحة على بعد المسافة بين وجهتى النظر الانجليزية والمصرية ، فاذا تعمد بيكر تجاهل وجهة نظر مصر أو عجز عن اداء المهمة التى نيطت به فالتبعة عليه .

وقد كلفت هذه الحملة مصر أكثر من مليون جنيه وكانت نتائجها تافهة لاتعدو انشاء ثلاث نقط عسكرية وخط حدود خيالى تتألف منها مديرية خط الاستواء ، ولم يكن الطريق بين هذه النقط غوندوكورو — فاتيكو — فويرا — مأمونا معبدا .

على أن نتائجها الأدبية فى تسوىء سمعة مصر وانقاص هيبتها بين سكان تلك المناطق النائية كانت كبيرة . ولعل ذلك كان فى صالح السياسة الانجليزية فقد كتب عضو فى الوزارة الانجليزية الى بيكر على أثر عودته الى لندرة فى أواخر سنة ١٨٧٣ يقول « مهما كان من أمر تجارة الرقيق

---

(١) سجلات عابدين . خطاب من الخديوى اسماعيل الى صاموئيل بيكر فى فبراير سنة ١٨٧٢ .

فان حملتك لابد أن تكون أدت الى بسط النفوذ الانجليزى فى مصر . كم سننتظر من الوقت حتى يكون لنا سفن بخارية حاملة العلم الانجليزى فى البحيرات ويكون لنا خط مواصلات منتظم يصل البحيرات بالقاهرة ؟ اننى لا أعرف فى الوقت الحالى فى العالم شيئا يعدل فى عظمته التقدم المطرد السريع الذى يصحب تغلغلنا فى قلب أفريقيا ، ومن الثابت الذى لا ريب فيه أن الطريق يمر معظمه فى الأراضى المصرية »

وبعد ذلك بأربعة أعوام فى سنة ١٨٧٨ ، أى قبل خلع اسماعيل بسنة واحدة كتب بيكر نفسه يقول بمناسبة الجدل الذى حدث وقتئذ حول المسألة الشرقية بعد امضاء معاهدة برلين « لا يسعنى الا أن أنظر مغتبطا الى التغييرات التى حدثت فى مصر والى اطراد ازدياد النفوذ الانجليزى فيها منذ سنة ١٨٦٩ اذ وظف الخديوى لأول مرة انجليزيا ومنحه السلطات المطلقة للقضاء على تجارة النخاسة فى أفريقيا الوسطى . وقد كان ذلك الاجراء بمثابة الحجر الأولى فى أساس الاصلاحات التى تمت بعد ذلك . فما كادت مهمتى تنتهى فى سنة ١٨٧٣ حتى عين غردون خلفا لى فسار على النهج . وقد ساعدت محاربة تجارة الرقيق على فتح الباب للتدخل الانجليزى فأصبح ملكولم باشا فى خدمة الحكومة المصرية للقضاء على هذه التجارة فى البحر الأحمر وأصبح ماك كيلوب ايضا باشا وبذلك أسبغت سلطات واسعة على أربعة من كبار الانجليز .

« والواقع أن بلدا مهاجما — كانجلترا فى كل عصورها — ليس فى مقدوره أن يقف كما يشاء فى زمان أو مكان يرتضيه . نحن مدفوعون الى الأمام ومضطرون بقوة الظروف الى مد حدودنا ولو لم يتفق ذلك مع رغباتنا (١) » .

ولا شك أن هـــذه الحقائق الصريحة تلقى ضوءها على حملة بيكر وتكشف عن العوامل الرئيسية الثابتة التى أدت الى فشلها وفشل مهمة غردون وغيره من الانجليز أو الأجانب الموالين لهم الذين منحتهم مصر ثقتها لاعلاء كلمتها ونشر نفوذها فى ربوع أفريقيا .

(١) Murray & Silva White, Sir Samuel Baker

الفصل السادس

٢ – غردون فى أفريقيا الوسطى

(١٨٧٤ – ١٨٧٦)

عاد بيكر الى القاهرة فى أغسطس سنة ١٨٧٣ وقدم استقالته من وظيفة حاكم « مديرية خط الاستواء » . وفى العام التالى (١٨٧٤) خلفه غردون فى نفس الوظيفة . وكانت مهمته الرسمية توطيد سلطة مصر ومدها الى البحيرات ، وقد نجح الى حد فى تنفيذ الشطر الأول ولكنه تردد وتلكأ فى تنفيذ الشطر الثانى تحت ضغط السياسة الانجليزية .

بلغ غردون الخرطوم فى ١٣ مارس سنة ١٨٧٤ ومعه الضابط الأمريكى شاى لونج والمهندس المصرى ابراهيم فوزى والضابط حسن واصف والمهندس الايطالى روميلوس جسى والمهندس الفرنسى لينان وطائفة أخرى من الضباط والمهندسين الانجليز .

وفى أواخر سنة ١٨٧٤ جعل غردون عاصمته فى لادو وكان يفكر جديا فى ايجاد مواصلات منتظمة بين النيل والبحيرات وتسيير سفن بخارية فى بحيرة فكتوريا نيانزا ، ولكن شغله الشاغل الأول كان حل مشكلة المواصلات بين مديريته ومصر اما عن طريق الشمال (الخرطوم – النيل) واما عن طريق الشرق (أوغندة – ساحل أفريقيا الشرقية) .

جاء فى يومياته بتاريخ ٢١ يناير سنة ١٨٧٥ : « لقد اقترحت على الخديوى أن يرسل سفينة بخارية الى خليج مومباسة الواقع على

بعد ٢٥٠ ميلا فى شمال زنجبار وأن ينشىء هناك محطة للتقدم منها صوب امتيزا ملك أوغندة . فاذا نجحت فى تنفيذ هذه الخطة جعلت قاعدتى فى مونباسة وتركت الخرطوم والمراكب البخارية ومتاعها .

« وبهذه الطريقة يمكن فتح الطريق الى أواسط أفريقيا بطريقة عملية ناجعة خصوصا وأن أجمل البقاع فى هذه المناطق هى الأراضى العليا الوشيكة من امتيزا فى حين أن البلاد الواقعة جنوبا ، من لادو الى الخرطوم كلها مستنقعات » .

وكان تدبير الأمر يقتضى عودة لونج الى مصر ليتولى بنفسه اعداد الحملة المتفق عليها بين الخديوى وغردون . وقد تمكن لونج قبل عودته من امضاء معاهدة مع امتيزا ملك أوغندة : بتاريخ ١٩ يوليه سنة ١٨٧٤ ، يعترف الأخير فيها بحماية مصر .

وقد سبق ذكرنا أن هذه الحملة التى اشترك فيها لونج ورأسها ماك كيلوب باشا (سبتمبر — ديسمبر ١٨٧٥) قد بلغت نهر الجب فى اتجاه مونباسة وفى أقصى حدود « السومال الايطالى » ولكن انجلترا باسم حقوق زنجبار على الساحل أرغمت مصر على اخلاء جميع المين التى احتلتها بين رأس حافون ونهر الجب .

وكان اسماعيل فى بداية حملة الجب وقبل احتلال المين على ساحل المحيط الهندى يرى أن بلاد السومال جميعها تؤلف منطقة النفوذ المصرى ، يدل على ذلك ما كتبه الى غردون بتاريخ ١٧ سبتمبر (١٨٧٥) فى كتاب يقول فيه : « ان مصب نهر الجب تابع لهذه المنطقة ، — وهو النقطة التى تفصل على الساحل بين أراضى زنجبار وأراضى السومال . وجميع الخرائط تبين هذا الحد . ولاشك أن جميع أراضى السومال التى تحتل الآن فعلا القسم الشمالى منها أصبحت تابعة لنا بساحلها الشرقى كما تتبعنا بساحلها الجنوبى . فاذا ما فتحنا طريقا بين البحيرات ومصب الجب فتحناه

فى أرضنا نحن . ولا يزيد هذا الطريق الا بمقدار مائة ميل عن طريق فورموزة (الذى اقترحه غردون من قبل) وحسبه أنه مأمن من العوائق الخارجية (اشارة الى الانجليز) » .

وفى سنة ١٨٧٦ (بعد فشل حملة الجب) قرر اسماعيل فتح طريق بين هرر وبحيرة فكتوريا للاتصال بقوات غردون وايجاد مواصلات سهلة للتجارة بين البحيرات والساحل (زيلع وبربرة) . وقد صدرت التعليمات الى قائد هرر « بأن يفتح بالتدريج طريقا لغـاية كابتزا Capitzza على سواحل فكتوريا » .

ولأجل فتح هذا الطريق الأخير كان يجب أن توطد مصر قدمها أولا على سواحل فكتوريا وفى أوغندة ولكن انجلترا كانت لها بالمرصاد على أن الطريق من ناحية هرر بفضل تقدم المدنية المصرية وانتشار الاسلام كان ينفتح رويدا رويدا خصوصا من ناحية الجالا . ومعلوم ان هـذه القبائل كانت تحيط بالحبشة وان الحبشة احتلت هرر سنة ٨٧ (بعد أن أرغمت انجلترا مصر على اخلائها سـنة ٨٥) وان منليك الثانى الذى أصبح ملكا فى نوفمبر سنة ١٨٨٩ هو أول من دعم ممالك الحبشة المختلفة وأخضع لأول مرة اخضاعا فعليا قبائل الجالا فى شرق الحبشة وفى الجنوب والغرب . فتمكن من زيادة مساحة الامبراطورية الى الضعف تقريبا ؛ وذلك بضم مناطق واسعة من الأراضى اليها . واذا أضفنا الى ذلك أن الحبشة استولت على منطقة أوجادين الواقعة فى وسـط شبه جزيرة السومال والتى كانت فى صميم منطقة النفوذ المصرى تبين لنا مقدار ما أصاب مصر وعاق تقدم المدنية فى هذه الأرجاء . وقد ظل سكان هضبة أوجادين مستقلين فعلا تحت راية المهدى عبد الله الذى ظل منذ سنة ١٩٠١ يجاهد ويعلن الحرب المقدسة على المشركين .

كان موقف انجلترا الحاسم من التوسع المصرى من ناحية مومباسة

والساحل ومن ناحية أوغندة ومنابع النيل من أكبر العوامل التى ربكت غردون فى أداء مهمته فانقلبت غيرته الظاهرة على المصـــالح المصرية فى سنة ١٨٧٥ الى تردد وحيرة واضطراب فى سنة ١٨٧٦ .

كتب غردون من موجى فى ٢١ نوفمبر سنة ١٨٧٥ يقول : « انه سيتقدم صوب البحيرات ليرفع هناك الراية قبل استانلى .. لأن مصر يجب أن تهيمن على البحيرتين جميعهما : فكتوريا وألبيرت » ..

وقد أرسل فى يناير سنة ١٨٧٦ الضابط المصرى نور أغا (نور بك محمد) وزوده بالتعليمات الآتية : « سل امتيزا اذا كان يريد قوات مصريه فى أوروندوجانى فاذا قال « نعم » فزره واذا قال « لا » فاذهب الى نياميونجو لأن هذه المحطة الأخيرة كانت تابعة لكاباريجا وقد أصبحت تابعة لنا الآن بعد أخذنا امرولى » .

وعلى الرغم من مظهر التردد والاضطراب الذى ظهر به غردون فى مسلكه فان امتيزا اعتقد أن ممثل الدولة « الحامية » جاد فى أمره وتقدم لاستقبال الحامية المصرية ، لا فى أوروندوجانى ، ولكن فى عاصمته ، روباجا .

علم بذلك غردون فى ٢ أغسطس (١٨٧٦) من خطاب أرسله نور أغا فكتب اليه : « بما أن هذه هى رغبة امتيزا نفسه فانى سأترك المائة وستين جنديا هناك . وهو وحده المسئول عن ذلك . وقد كنت أريد أن يحتفظ باستقلاله ولهذا السبب كنت اخترت طريق النيـــل — أوروندوجانى وكوسيتزا (شلالات ريبون) — ولكن الآن وقد أصبحت لنا حامية فى عاصمته فان قوة صغيرة تكفى لحراسة هذه الأماكن ، وسيكون نصيبه الأسر اذا لم يلتزم الهدوء . وانى أرى الآن فى قبضة يدى تجارة زنجبار كلها . الواقع أن استقلال امتيزا أصبح فى حكم المفقود [١] » .

---

(١) Colonel Gordon In Central Africa.

والعجيب أن غردون منذ ارسال ضابطه فى يناير كان يجب عليه أن يستمر فى اتجاهه نحو الجنوب وأن يذهب على رأس قوة جديدة الى بحيرة فكتوريا وعاصمة امتيزا (وهى تقع فى شمالها) ليؤيد مبعوثه ، ولكنه بدلا من ذلك اتخذ طريق الشمال وقفل راجعا طارحا مهمته وراءه .

ومن أعمال غردون التى تنم عن قلقه وعدم استقراره مبادرته بتبليغه برقيا الخديوى ماحدث فى أوغندة . وقد بادر الخديوى من ناحيته بمنحه النشان المجيدى ولكن فى الوقت الذى وصل فيه رد الخديوى كان غردون قرر من تلقاء نفسه اخلاء أوغندة التى احتلها المصريون شهورا بحجة أن الجنود كانت فى « موقف حرج » وانه لم يكن من « حسن السياسة » إجابة طلب امتيزا .

وقد عادت الجنود من عند امتيزا فى ٩ سبتمبر وكان برفقتها الدكتور أمين الألمانى (ادوارد اشنيتزر) الذى أرسله غردون لمفاوضة الملك فى أمر انسحابهم [1] .

---

(١) كتب برنارد الن فى كتابه (غردون والسودان) الذى ظهر فى سنة ١٩٣١ يقول : « بعد احتلال مازندى عاصمة الاونيورو ارسل غردون فرقة من الجنود لاحتلال ماجونجو فى اقصى حدود مملكة كاباريجا الغربية وعلى سواحل بحيرة البيرت . ثم سار جنوبا بعد أن اقام خمسة ايام فى فويرة واستقر فى امرولى حيث انشأ محطة او نقطة عسكرية . وكان فى نيته وقتئذ ان يمعن فى تقدمه نحو الجنوب ويحتل نقطة على ضفاف بحيرة فكتوريا ، ولكنه فضل بعد لأى العودة صعدا الى الشمال . وقد اكتفى بتكليف الضابط المصرى نور اغا بالذهاب الى أوغندة لانشاء نقطتين احداهما فى اورونلدوجانيا على حدود امتيزا الشمالية والأخرى فى كوسيتزا على بحيرة فكتوريا .

« وقد غادر غردون امرولى فى ٢٤ يناير وبينما كان يكتشف النيل من دوفيلة الى البحيرات وصله فى ماجونجو كتاب من نور اغا انه بناء على طلب امتيزا وضع حامية فى عاصمته روباجه على ضفاف بحيرة فكتوريا » .

وكتب الدكتور فيلكين فى تعليقه على مذكرات أمين باشا وهو من المبشرين الانجليز الذين جابوا أواسط افريقيا فى عهد الحكم المصرى وزاروا =

وقد استمر غردون فى طريقه شمالا حتى وصل الخرطوم فى أكتوبر ، ومن هناك يمم القاهرة ثم لندرة ...

وظاهر أن غردون اذ منع مصر من توطيـــد قدمها فى أوغندة وعلى ضفاف فكتوريا ، بعد أن احتلت عاصمتها ، قد فعل ذلك لتفادى اغضاب الحكومة الانجليزية فقد كتب من امرولى بتاريخ ٩ سبتمبر (١٨٧٦) يقول : « لقد عادت الجنود من دوباجة (يريد روباجة) . ان امتيزا على اتصال مستمر بزنجبار .. ويظهر أنه يجهل أن بعثة انجليزية (مؤلفة من قسيس وضابط بحرية وعمال ..) فى طريقها اليه . وقد سحبت جنودى قبل وصولها .. »

وفى أول سبتمبر سنة ٧٦ أرسل غوردون من امرولى مذكرة خاصة بالبعثة الانجليزية فى أوغنـــدة الى رئيس أركان حرب الجيش المصرى (وصلت فى ١٣ نوفمبر) جاء فيها : « مما لاشك فيه أن ارسال بعثـــة مسيحية عند الشعوب الوثنية أمر لا اعتراض عليه .ولـكننا إذا درسنا تكوين بعثة أوغندة ظهر لنا أنها ليست مسيحية فى جوهرها اذ أنها تتألف

=أوغنده : « وقد اظهر لى امتيزا مرارا كل تقدير للطريقة التى حافظ بها امين على استقلاله وقت أن كان مهددا بتصرفات نور بك غير الحكيمــة (كذا) . وكان نور بك قد ذهب الى عاصمته على راس ثلثمائة جندى مصرى ليضم اوغندة الى مصر . وقد كان تصرف نور بك يتعارض تماما مع اوامر غردون باشا » .

نضيف الى ذلك أن امين باشا هذا الذى خلف غردون فى مديرية خط الاستواء ذهب فى مارس سنة ١٨٨٢ الى الخرطوم لزيارة عبد القادر باشا حلمى ونجح فى الحصول منه على أمر باستدعاء نور بك محمد الذى كان وقتئذ القائد العام لقوات خط الاستواء ، والضابط بخيت بك بطرقى كبير ضباط مركز مكراكا .

ويرى (فيتا حسان) وهو يهودى تونسى كان يشتغل مع امين ومؤلف كتاب بالألمانية عن مديرية خط الاستواء « ان استدعاء هذين الضابطين المجربين سببه غيرة أمين وخوفه من نفوذهما » .

من قسيس ، وضابط من البحرية الملكية ، وطبيب ومهندس معمارى ، ومهندس ميكانيكى ، وأستاذ ، ورجل زراعى ، واختصاصى فى بناء السفن .

« فهذه البعثة اذن أشبه بتجريدة استعمارية ، وبهذه الصفة يجب أن تنظر اليها الحكومة المصرية ..

« وانى واثق أن تنظيم هذه البعثة التمدينية من عمل صموئيل بيكر ، وقد وصلنى من انجلترا خطاب يشتمل على نبذة من خطاب كتبه صموئيل بيكر الى الرحالة جرانت جاء فيها :

« اننى متعب من تلك الفتوحات المصرية ... وانى لأعجب كيف لايذهب أحد الفتيان ومعه مائة بندقية سنيدر ليحمى امتيزا وينظم جنوده . ولولا عوائق الأسرة لذهبت بنفسى » .

« ولا ريب أنه من الأفضل كثيرا فى الوقت الحالى أن يستخدم سمو الخديوى الضباط الأمريكان بدلا منى ، لأنى لا أحب الكتابة فى الصحف . وبصفتى انجليزيا وضابطا فى خدمة صاحب الجلالة لست أملك من الحرية مايملكون » .

والغريب أن غردون مع تنحيه عن مهمته وعجزه عن تنفيذها لتعارضها مع سياسة بلاده سيعمل بمجرد عودته الى لندرة على العودة ثانية الى السودان بسلطات واسعة يستعين بها على تحقيق أغراض بلاده .

الفصل السابع

غردون فى السودان

(١٨٧٧ — ١٨٧٩)

عاد غردون الى لندرة بعد أن صدع بأوامر وزارة خارجية بلاده . وادعى أنه وضـــع حدا لتجارة النخاســـة فى مديريته ولكن بقى أن يضع لها حدا فى جميع السودان . وظاهر أنه تحت ستار النخاسة التي زعم بيكر من قبل أنه قضى عليها كان غردون يطمح ببصره الى منصب الحاكم العام ، لا فى مديرية خط الاستواء وحدها ، بل فى أقطار الوادى .

ذهب غردون ثانية الى القاهرة وأرسل الى الخديوى فى ١٠ فبراير سنة ١٨٧٧ شبه انذار يقول فيه « اعطنى السودان والا فلن أسافر » . وتدخل فى الأمر فيفيان قنصل انجلترا وحمل الخديوى على كره منه على قبول طلب غردون وعينه حاكما عاما للسودان فى اليوم السابع عشر .

وكانت انجلترا فى ذلك الوقت واقعـــة تحت « كابوس » التوسع المصرى صوب منابع النيل ، وكانت العرائض تقدم كل يوم الى الحكومة الانجليزية ، بعلمها وتشجيعها ، للمطالبة بمنع الخديوى من بسط سيادته على مناطق أفريقيا الوسطى ، حوالى البحيرات .

سأل فيفيان ، بناء على تعليمات حكومته ، غردون فى الموضـــوع فأجاب بانه مرتبط بتعليمات الخديوى التى يتحتم عليه بمقتضاها أن يتقدم فى هذه المنطقة وأن يضع سفينة بخارية فى بحيرة فكتوريا . على أنه عرض

حلا وسطا يقضى بأن تعلن مصر ، بمجرد الانتهاء من هذه المهمة ، حيدة البحيرة وأن تعترف فى الوقت نفسه باستقلال امتيزا بشروط عادلة [١] .

وأخيرا عرض غردون حلا آخر تتنازل مصر بمقتضاه عن بحيرة فكتوريا على أن يكون لها الحق فى الاحتفاظ بمملكة أوزوجا الصغيرة على البحيرة وبمملكة الأونيورو وبحيرة ألبيرت . ولكن الحكومة الانجليزية طالبت بأن تجلو مصر عن جميع المناطق الممتدة حوالى البحيرات .

وهذا ما حدا بغردون فى سنة ١٨٧٨ الى ارجاع الحدود المصرية الى منطقة خلفية بعيدة من بحيرة ألبيرت نيانزا وأمر الدكتور أمين الذى خلفه فى أفريقيا الوسطى باخلاء المحطات الجنوبية مع مازندى (عاصمة الأنيورو) بحيث تصبح دوفيلة (على بعد ١٠٠ ميل من ماجونجو ومن بحيرة ألبيرت) أقصى حد للأراضى المصرية فى الجنوب .

روى فيتاحسان [٢] ، أن أمين حاول التملص من هذا الأمر ، وبدلا من اخلاء المحطات عقد النية على بسط مديريته الى أبعد حدود بحيرة ألبيرت . ولكن غردون تمسك بقراره وكلف الايطالى جسى الذى كان موجودا وقتئذ فى بحر الغزال بالذهاب الى خط الاستواء وتنفيذ الاخلاء [٣] . ولكن ما كاد غردون يترك الخدمة فى السودان (١٨٧٩)

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٨٤ . مجلد ١٤٧٢ . القاهرة فى ٩ أبريل سنة ١٨٧٧ .

(٢) فيتاحسان (الحقيقة عن امين باشا) بالالمانية

(٣) كتب فيلكن فى سنة ١٨٧٨ عن ملك الأنيورو قائلا : « ان كاباريجا ماينفك يزعج المحطة (ماجونجو) بهجماته . ومما يؤسف له حقا أنه لم يقض على ذلك الحكم الظالم وكان ذلك ميسورا لعهد قريب لولا المعارضة القوية التى اثارها فى انجلترا قوم ينظرون بعيون غيارى الى كل امتداد للأراضى المصرية صوب الجنوب » .

وفى اغسطس سنة ١٨٧٩ أكد فيلكن أن من أعمال غردون الأخيرة قبل ترك منصبه اصدار الأمر باخلاء الأونيورو « ولذلك اخليت محطات امرولى وكودج وكيرو . اما مازندى وكيسونا فكانتا أخليتا قبل ذلك بعامين . وتنشأ فى الوقت الحالى محطات أو نقط عسكرية جديدة لحراسة الحدود الجنوبية كما ان مديرية مكراكا ادمجت فى المديريات الاستوائية =

حتى استعاد أمين المحيطات المتروكة . وقد اكتسبت فيما بعد قمية كبيرة .

كان غردون فى أثناء هذه الحوادث عين أمين محافظا لسواكن (على البحر الأحمر) عقابا له . ولكن بعد رحيل غردون ألغى خلفه رؤوف باشا هذا الأمر وأبقى أمين فى وظيفته .

وليس أدل على التواء القصد علىغردون وخبث طويته من ادعائه فى احدى رسائله ، بتاريخ ابريل سنة ١٨٧٩ ، بأن « حكم المصريين فى هذه الأقطار النائية حكم قطاع طرق » تبريرا لقوله « بأنه أخلى أكثر من نصف البلاد التابعة لمصر فى خط الاستواء » وان « ٣٠٠ ميل أصبحت تفصل بيننا وبين امتيزا الآن (١) » .

تلك كانت الطريقة التى نفذ بها غردون تعليمات الخديوى الخاصة ببسط السيادة المصرية على بحيرة فكتوريا وجعلها بحيرة مصرية .

وكان غردون يريد تقويض السيادة المصرية فى السومال وهرر : وغير خاف أنالارتباكات المالية والسياسية والتدخل الأجنبى فىمصر كانت

= وقد تكلم فيلكن عن تنظيم مديرية خط الاستواء : « ان الدكتور أمين هو الآن (١٨٧٩) الحاكم لهذه المنطقة الواسعة . ويوجد ثلاثة مديرون او وكلاء للحاكم : واحد فى مكواكا وواحد فى كيرى وواحد فى ماجونجو . وهم يقتسمون المحطات بالتساوى تقريبا . ويوجد فى كل محطة وكيل أو مدير مدنى وقائد عسكرى » .

ووصف فيلكن العاصمة لادو فقال انها مدينة مشيدة باحكام وان المستشفى والجامع والمبانى الحكومية كلها مبنية بالطوب الأحمر وعليها سقوف من حديد . وان الشوارع مستقيمة وان حول الجدران جنائن واسعة فيها من الخضروات والشجر كل نوع وان ريها بالشادوف .

وقد انشئت المحطات الأخرى على نمطلادو . وكان رؤساؤها المدنيون والعسكريون من المصريين أو السودانيين . فكان سليم مطر مديرا لكودج ومرجان الدناصورى مديرا لفاتيكو وفرج اجوك مديراً لامرولى واسماعيل أبوحطب وكيلا فى رجاف (انظر Wilson & Felkin, UGANDA & THE EGYPTIAN SUDAN 1882.

(١) Hill, Colonel Gordon In Central Africa, p. 349.

وقتئذ فى أشدها وكان غردون تلقى دعوة فى فبراير سنه ١٨٧٨ لرئاسة « لجنة التحقيق العليا » فلما وصل الى القاهرة رفض كل تعاون مع أناس « استولوا على حكومة البلاد بطرق غير شريفة » وقرر العودة الى السودان .

فى ٣٠ مارس (٧٨) يمم غردون السويس ولكنه بدلا من أن يذهب الى الخرطوم ليعالج الأحوال هناك رأى أن يقوم برحلة تفتيشية فى مناطق السومال وهرر . فى شهر أبريل زار زيلع وبربرة وهرر ولكنه قبل وصوله الى هذه المديرية الأخيرة قرر عزل رؤوف باشا الذى كان ينفذ خطة انشائية واسعة فى أفريقيا الشرقية المصرية .

وحقيقة الأمر فى رأى كاتب ايطالى ، « ان المركز الضخم الذى وصل اليه رؤوف باشا بنفوذه الشخصى كان يثير الغيرة والقلق فى نفس غردون [١] » .

والواقع أن غردون كان بيت أمر هذا العزل لأنه كان يفكر فى تعيين أوربى مثل صاموئيل بيكر الذى كان نقمة على المديرية الاستوائية مكان الحاكم المصرى وقد رفض بيكر . فكتب غردون الى الرحالة بيرتون الذى كان وقتئذ قنصلا لانجلترا فى مدينة تريستا فرفض بدوره . على أن الخديوى الذى لم يحسب غردون لسلطته حسابا أبى الا أن يعين مصريا خلفا لرؤوف باشا ، ولكى يؤمن هذه المناطق من شطط غردون انتزع فى شهر ديسمبر (٧٨) هرر والسومال من إشراف الحاكم العام للسودان فأصبحا تابعتين للقاهرة رأساً . وبذلك بقيت هذه المنـاطق بمعزل عن الفوضى الادارية والسياسية التى كانت ضاربة أطنابها فى السودان فى العهد الأخير (١٨٧٧ — ١٨٧٩) .

والواقع أن غردون لم يكن رجل ادارة أو سياسـة . وكان يحكم السودان كأنه نائب الملك فى الهند حكومة مطلقة قائمة على مبدأ تجاهل

(١) Ing. Robecchi Bricchetti, NELL HARRAR. 1876

خديوى مصر واحلال الأوربيين أو السودانيين من طبقة خاصة محل المصريين فى الوظائف العامة .

قال فيتا حسان فى كتابه : « ما كاد غردون يحتل منصبه حتى كان أول أعماله الادارية طرد الموظفين القدماء وتكوين بطانته من أشخاص عديمى التجارب من أهل البلاد رفعهم دفعة واحدة الى مراكز لم يكونوا أهلا لها اطلاقا ، وقد حدث فيما بعد ، فى بداية الحركة المهدية ، أن أولئك الموظفين كانوا أول من انقلب على الحكومة ونقض عهودها وأسرارها .

« وقد عزلته هذه البطانة عن الأهالى واجترأت فى ظله على ارتكاب كل المساوى ودفعت السودان كله فى أحضان اليأس وزادت الطين بله .

« ولاشك ان المراسيم والأوامر التى لا يبرح يناقض بعضها بعضا وتدخل ادارة وضيعة وموظفين غير أكفاء أوجدت ارتباكا عاما فى أحوال البلاد . وليس أدل على فساد حكومة السودان واختلالها فى عهد غردون ، من سنة ١٨٧٧ الى سنة ١٨٧٩ ، من العريضة التى رفعها تجار البلاد وأعيانها الى الخديوى اسماعيل سنة ١٨٧٨ » .

وكان النمسوى سلاطين بك (باشا فيما بعد) عين فى غضون سنة ١٨٧٩ مفتشا للمالية ثم حاكما لدارفور . وقد تكلم عن أحوال السودان ابان الثورة المهدية وقبلها فى كتابه المشهور (الحديد والنار فى السودان) . جاء فيه بخصوص العهد الذى نحن بصدده : « فى العهد الأخير بوجه خاص كان السودانيون الذين وصلوا الى عليا المناصب وكذلك أقرباؤهم المعينون فى الوظائف الصغيرة ، يعملون على الاثراء فى أقصر وقت . وقد عين غردون التاجر الثرى الياس باشا مديرا لكردفان فاستاء خلق كثير . وقد خلف عبد الرحمن بك ناجى الياس باشا مديرا وكان مثله تاجرا من كردفان ... ولاريب أن الروح « التجارية » المتأصلة فى مهنتهم كتجار كانت تسوقهم الى استغلال البلاد لمصلحتهم المادية ومصلحة أقربائهم ...

« ولما كان من الصعب تجاهل الرأى العام فقد عزل الياس باشا وعبد الرحمن بك وعين مكانهما أتراك أو مصريون .

« على أننا نحن الأوربيين ، على الرغم من أننا كنا قلة وكانت كراهية الناس لنا بوجه عام غير شديدة لتأصل حب العدالة فى نفوسنا كنا فى مناسبات عديدة سبب الاستياء .

« فقد حدث أننا ، مع حسن نياتنا ، كنا كثيرا ما نصدر قوانين ومراسيم تجرح السودانيين فى عاداتهم وتقاليدهم وشعورهم وتبعث على مر الشكوى .

« وقد كان لأول اعلان (الحرية [1]) — بناء على أوامر الحكومة أسوأ تأويل فى البلاد .

« ذلك أن تجارة الرقيق كانت مشروعة من الناحية الدينية . وكانت هذه التجارة تمون السكان بانتظام بعناصر فتية جديدة تؤدى أجل الخدمات للزراعة وتربية الماشية . ولم يكن الشارون يشغلون أنفسهم بالفظائع التى ارتكبت للحصول على العبيد وجلبهم الى سواحل النيل حيث يباعون . ولكن يجب علينا أن نعترف بأن العبد بعد اتمام الصفقة كان يرعاه سيده ويكرمه .

« وكان محمد أحمد (المهدى) يعرف كل هذه الشكاوى فعمل على استغلال الاستياء العام » .

ولنقف الآن على مسألة الرقيق قليلا لعلاقتها القوية بادارة غردون وبأحوال السودان قبل الثورة المهدية [2] .

---

(١) منشور أصدره غردون لتحرير العبيد.

(٢) لا بأس هنا من ذكر كلمة عن النخاسة والنخاسين . الزريبة أو الديم عبارة عن نطاق محصن كان يستعمل فى الوقت نفسه متجرا أى مركزا لتجارة العاج والعبيد ولوازم المعيشة . وكان لمعظم كبار تجار الخرطوم شركاء أو وكلاء لهم وظيفة ثابتة فى الزرائب . وكان يوجد من هذه الزرائب اثنتا عشرة فى بحر الغزال . وكان للوكلاء جنود غير نظامية أو بازنجر مهمتهما الحراسة وفقهاء كانت تجارة الرقيق من توابع=

كانت تجارة الرقيق الشغل الشاغل الأول لغردون منذ وصوله الى الخرطوم بصفته حاكما عاما فى مايو سنة ١٨٧٧ . وظاهر منذ البداية على الأقل أن غردون كان يتردد فى تنفيذ سياسة العنف التى نادت بها حكومته وحاولت فرضها عليه وعلى ملكولم ، وعلى بيكر من قبلهما ، وانه كان

= اختصاصاتهم . وكان أولئك الفقهاء مقدسين فى نظر عامة الشعب رغماً من أنهم كانوا محترفين بالتجارة الوضيعة ، يبيعون التعاويذ ويدجلون . كانوا يتنقلون بين الزرائب لا تخرج من أفواههم كلمة دون ذكر الله ونبيه ، وكانوا يخلطون بعباداتهم أعمالا منكرة يبرأ منها الشرع .

ولا ريب ان كل تعرض لتجارة الرقيق أو للزرائب كان معناه التعرض لنظام قائم على المصالح الاقتصادية والدينية فى السودان . لأن تجارة العاج (أو العاج الأبيض) كانت ذات اتصال بتجارة العاج الأسود (العبيد) وفروع التجارة الأخرى كما ان العبيد كانوا يقومون بجميع الأشغال فى السودان (أشغال منزلية وزراعية) . وبالجملة كانت الزرايب عبارة عن قواعد حصينة يستند اليها نظام اجتماعى واقتصادى واسع لا يبدله ولا يغيره الا حركة تطور طبيعى فى الاقتصاد والاجتماع .

فكان القول بالقضاء على النخاسة بقوة السلاح معناه قلب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية القائمة دفعة واحدة والجرى على سياسة هدامة مخربة محفوفة بالأخطار والصعاب وان طبيعة السودان المترامى الأطراف بمجاهله الواسعة وغاباته وجباله كانت تساعد النخاسين على الاحتماء والتخفى فى جهات لا حصر لها من المستحيل مراقبتها .

روى الايطالى جسى فى كتابه (سبعة أعوام فى السودان) « ان الحكومة المصرية أرسلت فى سنة ١٨٣٧ للمرة الأولى حملات فى افريقيا الوسطى لفتح طرق جديدة . وقد انشأت وقتئذ محطات على بحر الغزال وبحر الزراف والنيل الأبيض لمقايضة المنسوجات القطنيـة وغيرها بالصمغ والحبوب والعاج . والواقع أن التجارة كانت حكرة بيد الحكومة ولكنها تركت حرة حوالى سنة ١٨٤٨ . فجعل كثيرون من تجار الخرطوم محل اقامتهم فى هذه المنشآت وكانوا يدفعون كل سنة للحكومة ضريبة من العاج تعادل اقصى كمية كان فى استطاعتهم الحصول عليها فى شهر . وقد صار اولئك التجار من الأغنياء .

« وكانت تجارة الرقيق الى ذلك العهد لاوجود لها فى سودان النيل ولم تبتدىء الا فى سنة ١٨٦٠ . وكانت تجارة رابحة . . . =

يدرك تماما أخطار هذه السياسة من وجهة النظر المصرية وانها كانت مخالفة لعقيدته وآرائه .

كتب غردون فى أثناء تطوافه فى المديريات الجنوبية ، بتاريخ ٢١ يونيه سنة ١٨٧٧ ، يقول : « ان الصعوبة الكبرى فى الغاء النخاسة أصبحت

= « ولما اراد الخديوى اسماعيل القضاء على هذه التجارة وفظائعها عقد اتفاقا مع التجار واشترى محطاتهم وذخيرتهم وسلاحهم وماشيتهم وعاجهم وعبيدهم وحرر العبيد فى نفس الوقت . ولكن هذه المحاولة الكريمة كانت عديمة الجدوى لأن التجار بعد ان وضعوا المال فى جيوبهم انشأوا محطات جديدة فى جهات اخرى نائية .

« وقد اتخذ غردون اذ كان حاكما لمديرية خط الاستواء الاجراءات الآتية :

اصدر مرسوما باحتكار لعاج وحل الشركات التجارية . ثم أنشأ نقطا عسكرية على نهر السوباط مثلا لمراقبة الطرق وخصوصا الأنهر التى تمر فيها النوجار (مراكب واسعة) محملة بالعبيد لمصادرتها »

وقد كان لتطبيق هذه الاجراءات بشدة بواسطة غردون فى افريقيا الوسطى من سنة ١٨٧٤ الى سنة ١٨٧٦ وفى السودان من سنة ١٨٧٧ لغاية سنة ١٨٧٩ نتائج خطيرة .

وقد خدم جسى غردونا منذ البداية وكان من أكبر صنائعه واعوانه فى سياسته التعسفية . فاعترافاته لها قيمتها قال : « بمقتضى مرسوم أصدره غردون كان رؤساء الزرائب المنتشرة على طول ساحل بحر الزراف والنيل الأبيض مجبرين على اخلاء منشآتهم فى ظرف ثمانية اشهر ، يصير بعدها للحكومة الحق فى مصادرة العاج والاستيلاء عليه .

« وقد سببت هذه الاجراءات للحكومة خسارة ضرائب سنة كاملة . وعدا ذلك فقد ترتب على الغاء الزرائب التى كانت المراكز الطبيعية لتموين الأهالى بلوازم المعيشة ازدياد نفقات حملتنا ، فى ذلك البلد الواسع البعيد من كل مركز تجارى بنسب مريعة » .

« أما فيما يتعلق باحتكار العاج فلم يكن قرارا حكيما لأن هذا الاحتكار جعل صيد الفيل يقل بطريقة محسوسة فى المديريات المصرية وجعل محصول العاج فى البلاد الجنوبية (الأونيورو بوجه خاص) ، بدلا من الذهاب فى طريقه الطبيعى صوب الشمال ، يتجه نحو الجنوب . وظلت الأراضى المصرية جد متأخرة لاسكك تجارية فيها ولا تجارة » .

وهذا ما صرح به عربى لجسى فى السودان سنة ١٨٧٩ : « فى أول الأمر كان لايحمل الا العاج مقابل اقمشة وبضائع من الزجاج . =

الآن واضحة أمامى . كم كنت أتمنى لو أن « جمعية أعداء العبودية » كان فى مقدورها أن ترسل الى أحد أعضائها القادرين على فهم المسألة على حقيقتها ليبين لى طريق حلها . انى أملك سلطة مدنية وعسكرية مطلقة فلو حكمت بالاعدام على شخص أو عشرة لما كان لأحد أن يعترض على . ويجب اعتبارى أنا وحدى المسؤول عن النخاسة اذا استمرت ، وهاك موقفى : ان دارفور وكردفان يقطنهما قبائل ضخمة نزاعة الى الحرب والقتال ، أكثر من نصف مستقلة تحت امرة شيوخها . ومعظم أراضى الصحراء تندر آبارها وتفصل بينها مسافات شاسعة . وبعض هذه الآبار معروف لهذه القبائل وحدها .

« واذا عرفنا أن بعض هذه القبائل تستطيع أن ترسل للحرب من ألفين الى ستة آلاف فارس على ظهور الخيل أو الابل تبين لنا أن الثورة فى ذلك الاقليم ليست مما يستهان به . أقول ذلك عن علم دفعت ثمنه .

« وهذه القبائل تغزو شعوب الزنوج فى الجنوب أو تقايض القبائل البدوية المنسوجات بالعبيد فيما وراء الحدود المصرية المزعومة . ولذلك

= وكنا نستقل حمل العاج فى زمن وجيز ونأخذ من الأهالى بلا مقابل مانحتاج اليه من غلال وماشية لأن البلاد كانت غنية بهذه الموارد ثم تعاقبت السنون واخذ بعض التجار يهاجمون السكان ويأخذونهم عبيدا واخذ السكان يقاومون وصار من المتعذر الحصول على شىءبغير الرصاص والبارود .

« واصبح العثور على العاج من الصعوبة بمكان وكان الأهالى بمجرد رؤيتنا يحرقون منازلهم ويختبئون فى الغاب . وقد زادت الحكومة البلاء بتحريمها نقل العبيد بطريق الأنهر لأنه فى الوقت الذى كان نقل العبيد فيه مباحا بواسطة السفن كانت نسبة الوفيات فى العبيد لاتزيد عن عشرة فى المائة وذلك على الرغم من ان العبيد كانوا يكومون تكويما بعضهم فوق بعض ، والآن ماذا يحدث ؟ تجتمع عصابات ضخمة من العرب فى كردفان ثم تنتشر فى البلاد لنهبها واجتياحها ، وفى هذه الحالة يضطر العبيد الى شق الجبال والصحارى وقطعها طوال الشهور والشهور قبل الوصول الى كردفان . واذا اضفنا الى ذلك ان الماء والحب يندر وجودهما فى اثناء الطريق وضح لنا السبب الذى من اجله لايصل الا ثلث القافلة الى غايتها » .

فان العبيد يدخلون الأراضى المصرية جماعات لا يزيد عدد الواحدة منها عن أربعة أو خمسة ، على أنه لا شىء يمنع من دخول فرق من مائة جندى ، لأننا ليس لنا على حدودنا نطاق مضروب من الديدبانات كما هو الحال فى روسيا .

« وقد اعتادت هذه القبائل بيع العبيد الى صغار التجار المنتشرين أفواجا فى كل صقع . ولا يلبث أولئك التجار الذين يفدون من جميع المناطق المصرية أن يذهبوا الى المراكز الآهلة بالسكان لبيع عبيدهم الثلاثة أو الأربعة لآخرين .

« والحق يقال لو أن الحكومة البريطانية نفسها كانت سيدة هذه البلاد فلا أدرى كيف يمكنها القضاء على تجارة الرقيق ، اللهم الا اذا زحزحت حدودها حتى شعوب الزنوج وأنشأت فيها خطا من المراكز العسكرية . ولست بحاجة الى القول ان الحكومة الانجليزية لن تبلغ من الحماقة درجة التعرض لخسارة شديدة والاضطرار الى مد حدودها لغاية بحيرة (اتشاد) [١] » .

وفى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٧ كتب غردون من دارفور الى أخته : « يخيل الى أن الحل الوحيد لايعدو التحرير الكامل اما بقوة السلاح ، وفى هذه الحالة ترتكب مظلمة كبرى ، واما بدفع تعويض لاطاقة لنا به فى الوقت الحالى . ولعل أفضل السبل رفع الحظر القانونى فيما يتعلق بنقل العبيد على أن تنظم الحكومة رقابتها عليه . ولكن اقتراحا كهذا سيثير ثائرة أفراد كثيرين [٢] » .

كان غردون مقتنعا كل الاقتناع بأن اتفاقية سنة ١٨٧٧ تتعارض مع مصالح مصر مما حمله الى التنديد بتصرفات ملكولم منذ تعيينه فى يناير سنة ١٨٧٨ مديرا لمصلحة الرقيق فى البحر الأحمر .

---

(١) Hill, Colonel Gordon In Central Africa (1874-1879

(٢) Letters of General C. G. Gordon To His Sister, p. 119

وكانت الحكومة الانجليزية ، وقد قلنا ذلك من قبل ، فى شهر مارس سنة ١٨٧٨ تتهم غردون بأنه « يهادن تجار الرقيق كمن لا يحس فى نفسه القوة الكافية لمناصبتهم العداوة » .

وقد ذكرنا أن هذه الحكومة بالذات ، بعد أن أرغم ملكولم على تقديم استقالته كانت تعتبر غردون « مسؤولا وحده عن الاجراءات الحاسمة الواجب اتخاذها للقضاء على تجارة الرقيق فى المناطق التى يحكمها وفى سواحل البحر الأحمر » .

وهذا ما يفسر لنا انه ابتداء من ذلك التاريخ (يونية سنة ١٨٧٨) شرع غردون يغير سياسته ويطرح آراءه وعقائده ويعلنها حربا شعواء على تجار الرقيق فى السودان . وصارت لغته وأفعاله كلها مطبوعة بطابع العنف :

كتب من الخرطوم فى ٢٧ يولية (٧٨) : « لقد أخذنا اثنتى عشرة قافلة من العبيد فى مسافة شهرين . وهى نتيجة لا بأس بها » . وفى أول أغسطس : « لقد أخذنا قافلة أخرى مكونة من مائتين وخمسين عبدا فى دارفور.فيكون مجموع القوافل التى أخذناها فى شهرين أربع عشرة» . وفى ٨ أغسطس : « انى أوجه كل يوم ضربات مميتة ضد تجارة الرقيق وقد أنشأت من أجل ذلك نوعا من « حكومة الارهاب » . فأعدمت شنقا رجلا طوش صبيا وانى لن أطلب الاذن بذلك من أحد . ولا يهمنى أن يوافق الخديوى أو يعارض [1] »

ومن هذه الآونة صارت مكافحة الرقيق عند غردون شبه عقيدة دينية يتحمس لها ويجاوز كل حد من أجلها ...

وكان الخديوى بالطبع حانقا على غردون وتصرفاته وان كان ذلك لم يمنع الحكومة الانجليزية من المبادرة بالكتابة ، بتاريخ ١٣ نوفمبر سنة

(١) Colonel Gordon In Central Africa, p. 319

١٨٧٨ ، الى لاسيل ، مدير القنصلية العامة فى القاهرة ، تكلفه « بأن يعبر للخديوى عن اغتباط الحكومة الانجليزية بالعمل الحازم الذى يقوم به غردون ضد تجارة الرقيق [١] » .

وقد اتخذ هذا العمل الحازم صورة حرب صليبية كانت لها أسوأ النتائج فى المديريات الجنوبية : بحر الغزال وكردفان ودارفور .

أشرنا من قبل الى حجز الزبير فى القاهرة على أثر الخلاف الذى نشب بينه وبين اسماعيل أيوب (١٨٧٥) ، ويظهر أن الخديوى كان يخشى من نفوذه العظيم فى السودان « لأن الذى لا شك فيه ، كما يقول سلاطين باشا ، ان هذا الرجل كانت له ارادة حديدية وذكاء خارق ، وكان من هذه الناحية يعلو بمراحل تجار العاج والرقيق الآخرين . وفى ذلك سر نجاحه العظيم » .

وقد نجح الزبير فى السيطرة على بحر الغزال ومساعدة الحكومة المصرية فى اخضاع دارفور . وبعد سفره الى القاهرة عين ابنه سليمان ليحل محله . وعين الحاكم العام من جهته حسن باشا حلمى ليكون ممثل الحكومة فى دارفور .

وكان السلطان هارون المطالب بالعرش لا ينى يحرك الفتن والقلاقل . وقد احتمى هو وبعض أنصاره بجبل مرة الوعر ولكن حسن باشا حلمى تمكن من كسره مرتين وأرغمه على الانسحاب .

وعندما وصل غردون الى الخرطوم (١٨٧٧) كانت دارفور تدخل تحت السيطرة المصرية . وقد عجل غردون بالذهاب الى دارفور ليرى أحوالها بنفسه ، وهناك اتخذ اجراء متعوسا اذ أنقص حامية دارفور انقاصا جائرا ووزع عددا كبيرا من الرجالة والفرسان بين الأبيض والخرطوم .

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٨٤ مجلد ١٥١١

ومن رأى سلاطين « ان هذه الاجراءات الاقتصادية كان لها فيما بعد أفدح العواقب » .

وفى أبريل سنة ١٨٧٩ عين غردون مسيداليا بك الايطالى الذى كان منذ بضعة أشهر حاكما لداره (فى جنوب دارفور) مكان حسن باشا حلمى [١] وقد حل محل ميسيداليا فى داره سلاطين بك الذى وصل اليها فى أغسطس سنة ١٨٧٩ وكان قبل ذلك اشتغل بعض الزمن مفتشا للمالية . وبعد وصوله علم أن ميسيداليا يريد التغيب فى أجازة فنصحه بالبقاء نظرا لأن هارون لم يُخضَع كل الاخضاع فيؤمن جانبه فكان رد ميسيداليا « ليس هناك مطلقا ما يدعو الى القلق وان جنود الحامية تكفى وزيادة لتهدئة جميع المصاعب المحلية الصغيرة » .

وبينا ذلك كانت قلاقل خطيرة قائمة فى بحر الغزال وكردفان وكان خطرها يتهدد دارفور .

كان بحر الغزال فيما مضى لا يقطنه الا الزنوج الذين هم السكان الأصليون . ولكن حدث بعد ذلك لعهد قريب أن العرب الدناقلة (من دنقلة) وأن الجعليين الذين كانوا يشتغلون بالزراعة فى وادى النيل هاجروا الى مديريات الجنوب وانضووا تحت راية كبار النخاسين الذين انتهبوا البلاد وبسطوا عليها سلطانهم .

وكان الزبير باشا زعيم الجعليين الآمر الناهى فيها . وكان ابنه سليمان منذ سنة ١٨٧٥ قد انسحب على رأس عصابات مسلحة الى الشاكة فى دارفور الجنوبية . وكانت الدوائر الحكومية تخشى أن تنضم قواته الى قوات هارون .

---

(١) كان غردون يقول ان حسن باشا حلمى « مجنون قد سبب خراب المديرية » وهذا المجنون فى زعمه كان رفض ترحيل الجنود من المديرية رغما من هدوء الأحوال الظاهر . فاضطر غردون الى الذهاب الى دارفور ثانية ليشرف بنفسه على تنفيذ اجرائه (سجلات عابدين . خطاب من غردون الى باروت بك من سواكن بتاريخ ١١ يناير سنة ١٨٧٨) .

وفى بحر الغزال كان يقيم ادريس أبتر وهو « دنقلاوى » وكيل الزبير منذ حملة دارفور [1] . وكان يوجد وقتئذ شيعتان تتنازعان السلطة الأولى شيعة الزبير أو العرب الجعليين وهم من سلالة عباس عم النبى والثانية شيعة (الدنقلاوى) وهى من سلالة دنقل (العبد) . وكانت الأولى ، وهى أشد بأسا وعددا ، تظهر كل ازدراء لأبناء العبد . لذلك ما كاد غردون يصل الى الخرطوم حتى بادر الطماح وكيل الزبير وأوجد فى نفسه الحذر من سليمان زبير ومن طموحه الى الاستقلال ونصحه بأن يعمل على توطيد سلطة الخديوى فى تلك المديرية .

عندئذ أرسل غردون الضابط المصرى ابراهيم فوزى الذى كان تحت امرته فى خط الاستواء الى بحر الغزال وكلفه باخراج البلاد من سلطة الشركات . وبمجرد وصول الحاكم الجديد بادر عمورى وغطاس ووكلاؤهم باظهار خضوعهم والتنازل عن ثلاثة أخماس الصمغ وريش النعام والعاج الذى كان حكرة للحكومة .

وكان سليمان زبير مستقلا بالأمر فى شاكه ومعه أربعة آلاف مقاتل. فلما علم بتقدم غردون الى دارفور — وكان لحق بفوزى — طلب عفوه وذهب اليه بنفسه فى داره فى أغسطس سنة ١٨٧٧ . فما كان من غردون الا أن وزع قواته بين وكلائه سعيد بك حسين (الذى عين مديرا لشاكه) ونور بك عنقرة (الذى عين مديرا لسرجا وأريبا فى دارفور الشرقية) . ثم أصدر أمره بعد ذلك الى سليمان بأن يعود الى شاكه . وقد امتثل سليمان للأمر رغما من تصرفات غردون المهينة وأرسل عدة خطابات الى غردون يستعطفه فيها استعطاف الابن « لأبيه » ويتوسل اليه أن يعينه فى وظيفة .

---

(١) فى زمن رحلة الدكتور شفاينفورت « أصبح ادريس وكيل غطاس ، وكان فى الزريبة شخصية كبيرة يستبد بالأمر والسلطان بعد أن كان عبدا بسيطا فى الخرطوم ، وهو من أصل زنجى وكان له مع ذلك نفوذ على النوبيين »

ولكن غردون كان شخصية شاذة غريبة الأطوار لا يعرف المصانعة كثير التقلب ، سريع التأثر ، يلين وقت الشدة ، ويشتد وقت اللين ، عنيدا جائرا فى أحكامه ، قليل المعرفة بالرجال ، يقضى معظم وقته فى التأمل والتصوف والتجول على ظهور الجمال فى أرجاء السودان وصحاريه .

أبى غردون أن يجيب سليمان الى طلبه واستنفد حلمه حتى بات يخاف انتقاضه عليه اذ كتب يقول من داره بتاريخ ٧ سبتمبر انه قضى ليلة منحوسة وهو يفكر فى حنق سليمان الذى ألقاه فى أحضان اليأس بينا لا يزال يملك قوة مؤلفة من ٤٠٠٠ رجل فى بحر الغزال « ولكن زعيما أكبر قوة (ادريس) معى الآن . ولذلك فانى لا أعبأ بتلك القوة » .

وفى أواخر سبتمبر (١٨٧٧) ذهب غردون الى شاكة من طريق داره وقرر تعيين سليمان ، بعد لأى ، مديرا لبحر الغزال ، مملكة أبيه القديمة ، ومنحه لقب بك .

ولما وصل سليمان الى مركز مديريته ، ديم زبير (نسبة الى أبيه) طالب ادريس أبتر بتقديم حساب عن أعماله .

وفى أثناء ذلك كان الضابط المصرى ابرهيم فوزى من ناحيته قد تجمعت لديه الأدلة القاطعة على أن ادريس رجل « شرير وخطر ودساس من الطراز الأول » فقرر القاءه فى غياهب السجن . ثم أخذه معه الى الخرطوم حيث اضطر الى الذهاب للعلاج .

وقد دفع فوزى بعد وصوله الى هذه المدينة الى ادريس كما دفع الى جميع شركات بحر الغزال ، مبلغا كبيرا من المال كثمن لمقدار كبير من العاج الذى كان صادره ؛ فاستمال ادريس عماله قنصل ألمانيا ، فردريك روسيه ، الذى بادر بالابراق الى غردون فى سواكن — وكان قد بلغها فى تطوافه المستمر — زاعما أن ادريس برىء وانه سجن ظلما .

فلما عاد غردون الى الخرطوم (يناير ١٨٧٨) حاول أن يقنع فوزى بترك ادريس يعود الى مديريته ففضل فوزى تقديم استقالته من وظيفة

مدير بحر الغزال . وقد قبل غردون هذه الاستقالة ولكنه أراد استغلالها لارضاء فوزى وادريس معا فعين الأول مديرا لخط الاستواء مكان الامريكي بروت Prout الذى كان يحكمها منذ ديسمبر سنة ١٨٧٦ والثانى مديرا لبحر الغزال برتبة بك !

كان رد سليمان الوحيد ازاء هذا التحدى أن أعلن عصيانه ورفض أن يذعن الا للقوة . ثم أخذ قواته فى ديم زبير وهاجم مباغتة قندة فسلم حصنها بعد مقاومة عنيفة فى الأيام الأولى لسنة ١٨٧٨ .

كانت قوات سليمان تفوق قوات ادريس وكان القضاء على هذه الأخيرة مسألة حياة أو موت للزبير وشيعته . كتب الزبير الكبير الى ابنه سليمان ، بتاريخ ١٣ مايو سنة ١٨٧٨ يقول : « لقد أصبح ادريس أبتر مديرا وسيكون همه القضاء على أعمالنا وخدماتنا للحكومة . فعجل بطرده هو ورجاله وذريتهم ولا يفتك فى الوقت نفسه أن تعمل على طاعة أوامر الحكومة وتوثيق صلاتك بها » .

فبدلا من استدعاء ادريس واعادة سليمان الى وظيفته ليتجنب بذلك تحول معركة النفوذ الى حرب طاحنة لاتؤتى غير الدمار والفوضى لم ير غردون فى كتابات الزبير الى ابنه الا تحريضا على العصيان . وسرعان ما عقد مجلسا حربيا أصدر حكما بالاعدام على الزبير وابنه بتهمة الخيانة العظمى !

ولما كان غردون مصمما على اعداد العدة لحرب نظامية أخذ يفتش عن رجل « حازم » قوى . وكان يونكر وقت اقامته بخط الاستواء ، فى أثناء رحلاته ، ضاغنا على ابراهيم فوزى لأسباب شخصية ، فانتهز هذه الفرصة وأوحى الى غردون بخلع ابراهيم فوزى وتعيين الدكتور أمين مكانه مديرا لخط الاستواء [1] .

---

(١) عند عودته الى مصر فى سنة ١٨٧٩ تبين لغردون ان اتهامات يونكر لفوزى كانت باطلة فطلب الى الخديوى ترقيته الى رتبة كولونيل ومنحه ٣٠٠ جنيه كتذكار للأيام التى قضياها معا فى السودان (انظر : Neufeld, A Prisoner of the Khalifa وكذلك ابراهيم فوزى باشا : السودان بين يدى غردون وكتشنر .

وكان فى ذلك الوقت جسى الايطالى قد ترك خدمة الحكومة واستعان بالمصور الفنان بوختا Bucht وبدكتور فى العلوم الطبيعية لاكتشاف وادى السوباط وبلاد الجالا فى السودان الشرقى لحساب ايطاليا . فأقنع يونكر غردون بحمل جيسى على ترك حملة السوباط وقبول رئاسة الجيش المنوط به تأديب العصاة . وستثبت الحوادث أن هذا الرجل (جيسى) كان أكبر مغامر بين الأجانب الذين تكاثروا فى السودان فى عهد الادارة المختلطة وأقدرهم على تطبيق سياسة العنف وهو رابع الثلاثة : بيكر وملكولم وغردون .

سافر جيسى ومعه يوسف باشا الشلالى وحوالى أربعين من الجنود والضباط لبدء حملته ، وقبل وصوله الى رومبيك كان يلقى النجدات باستمرار على طول الطريق من فاشودة ولادو ومكركة وغيرها . ولم تكن الأحوال ، من يوليه الى ديسمبر سنة ١٨٧٨ ، فى فصل الأمطار ، تسمح بحرب هجومية .

وقد تجمعت عنده قوة تزيد عن ٧٠٠٠ رجل فاتجه بها الى قندة حيث التزم الدفاع مدة ثلاثة أشهر مكتفيا برد هجمات الزبير . ثم وصلت اليه نجدات جديدة فى مارس سنة ١٨٧٩ فشرع فى الهجوم ، وتمكن فى أول مايو ، من كسر الزبير وارغامه على الهرب وترك ثروته الكبيرة فى ديم زبير فاستولى على معظمها الدناقلة من أعوان ادريس .

وقد حاول جيسى اللحاق بالزبير ولكنه لم يمتد اليه فعاد ادراجه الى ديم زبير وهناك جاءه أمر من غردون بالذهاب للقائه فى دارفور حيث استقر به المطاف .

وكان غردون فى العهد الأخير هائجا يعارض فى كل فكرة سلمية ولا يفكر الا فى البطش القتال اذ كتب فى ٢٤ يناير (٧٩) يقول : « ان اهلاك عصابة الزبير يعتبر نقطة تحول دقيقة فى مشكلة الرقيق » ، مع أن عصابة ادريس كانت تؤيدها حكومة غردون .

وقد كانت حكومة القاهرة تعلم استفحال الشر فى السودان وتفكر فى وضع حد لسياسة غردون فكتب نوبار الى حاكم السودان يقترح عليه فيه الموافقة على ارسال الزبير رحمت فكان رد غردون فى التاريخ السابق (٢٤ يناير سنة ٧٩) :

« اننى أعين فى جميع نقط الحدود وكلاء أوربيين ليمنعوا مرور كل قافلة من قوافل العبيد ...

« وسأمنح جيسى ألف جنيه اذا نجح فى القبض على ابن الزبير . وآمل أن يشنقه . لأنه لو أرسل الى القاهرة لرحبوا به » .

وفى أثناء اقامته الثانية فى دارفور ، حوالى ١٨٧٩ ، كان سليمان زبير بعث اليه فى شكا تسعة رؤساء من أعوانه ليطلبوا اليــه أن يصــدر أمره الى جيسى باخلاء بحر الغزال .

روى جيسى أن غردون باشا استبان فى أولئك الرؤساء التسعة نفرا من المحرضين على مذابح ديم ادريس فكان رده عليهم أن أماتهم فى الحال رميا بالرصاص .

وقد روى سلاطين حادثة أخرى كان لها أثرها قال : علم غردون أن تجار الأبيض فى كردفان كانوا يبيعون الســلاح والذخيرة الى عصابة سليمان . فكان الجلابة يفكون هذه الأسلحة ويهربونها وسط بضائع أخرى فى مديرية بحر الغزال حيث كان يشتريها الثوار بثمن فاحش . ونظرا لندرة النقد كان العبيد يستخدمون للتبادل والمقايضة .

ورغما من الغاء كل تجارة فى المنطقة الواقعة فى جنوب طريق القوافل (الأبيض — داره) كانت تجارة الأسلحة تزداد كل يوم . فعمل غردون « عملا أخرقا كانت له نتائج مدوية فى أنحاء السودان » اذ أصدر أمره الى مشايخ القبائل العربية (البقارة والرزيقات الخ) بالقبض على جميع الجلابة الذين يصادفونهم فى أراضيهم وجلبهم تحت الحراسة الى داره وطويشة وأم شنقة والأبيض .

وقد فرح العرب بهذا القرار الذى أرضى جشعهم . ولما كان من الصعب فى هذه الحالة التمييز بين التجار الشرفاء — وكان منهم فئة كثيرة أو قليلة — والمهربين لم تفكر السلطة مطلقا فى التفرقة بين الصالح والطالح وانطلق العــرب فى كل مكان وراء طريدتهم الجلابة وكانوا يسلبون أمتعتهم وما يملكون ويسوقوهم أفواجا شبه عرايا سوق الأنعام الى داره وطويشة وأم شنقة .

ونظرا لأن الجلابة كانوا جميعا — الا ما ندر — من سكان منطقة وادى النيل الزراعية وخصوصا الجعليين فقد وسعت هذه الحوادث مسافة الخلف وجعلت العداوة القديمة تستأصل بين قبائل الغرب العربية وبين سكان وادى النيل .

« فاذا نظرنا الى الأمر من الناحية الانسانية لم يسعنا أن ننكر أن طرد الجلابة بهذه الطريقة الظالمة العنيفة مدعاة للقول ..

« وكان الجلابة المطرودين من البلاد الجنوبيــة من أهالى كردفان ووادى النيل (الجعليين والشايقيــة والدناقلة) ، هاجروا من وطنهم للاثراء من مزاولة التجارة والرقيق وتركوا وراءهم أصدقاءهم وذويهم الذين كانت تهمهم شؤونهم ومصالحهم خصوصا وانهم كانوا يشاركونهم ماليا فى مشاريعهم .

« ولهذا السبب كان أمر غردون بطرد الجلابة ذا أثر بعيد فى سمعته ومكانته بين سكان وادى النيل [1] » .

التقى غردون بجيسى فى طويشة وبعد أن علم مجرى الحوادث أمره بالعودة الى داره للبحث عن سليمان على أن يعود هو الى الخرطوم . وقد

---

(١) سلاطين باشا — الحديد والنار فى السودان . يجب الرجوع الى أصل الطبعة الألمانية لهذا الكتاب او الى الترجمة الفرنسية . اما الترجمة العربية المنقولة عن الترجمة الانجليزية فهى كأختها ناقصة مشوهة لا يمكن التعويل عليها وقد تصرف ونجت باشا فى الترجمة الانجليزية ولم يكن أمينا .

طلب الضابط المصرى يوسف بك الشلالى الى غردون أن يصطحبه فى رحلته اذ كان لا يريد البقاء بأية حال تحت امرة جيسى .

وفى دارة علم جيسى أن سليمان بعد أن ترك بحر الغزال ذهب مع قواته الى منطقة دارفور الجنوبية فبادر الى تعقبه وأخذ معه اسماعيل أفندى برنو وهو من أصل مصرى ، وقد ولد بدارفور ، « وكان يمتاز بشجاعته ومعرفته التامة بأحوال البلاد » .

كان جيسى يريد ارغام سليمان على التسليم ، بأى ثمن ، فلجأ عند بلوغه الكلكه الى اسماعيل برنو ، وكان صديقا لسليمان منذ زمن طويل ، وكلفه بمهمة لدى الأخير فى معسكره فى غرة [٢] .

وكان جيسى يعرض فى حالة الخضوع تأمين حياة سليمان وأعوانه وصرف مرتب شهرى لائق له ولهم .

وقد أبى رابح أكبر أنصار الزبير أن يسلم أمره الى جيسى ونصح سليمان بالتريث والحذر ولكن اسماعيل أقنع سليمان بأن المقاومة لا طائل وراءها وكتب الى جيسى يستقدمه على عجل فى غرة فحضر ومعه دناقلته من رعاع ادريس . وهناك نجح اسماعيل [١] فى اغراء سليمان وصحبه بناء على العهد الذى قطعه جيسى على نفسه ولكن جيسى كما يظهر لم يكن أمينا على العهد وكان مخادعا يريد « رأس » سليمان لتنفيذ وصية غردون فاستند الى وشايات الدناقلة الذين زعموا أن الزبير يبعث الرسل الى رابح . وأصدر اليهم الأمر باعدام سليمان وأعوانه رميا بالرصاص .

حدث ذلك فى ١٥ يوليه سنة ١٨٧٩ . وكان خمسة مشايخ قد انفصلوا

---

(١) من العجيب ، ولهذا السكوت مغزاه ، ان جيسى فى مذكراته التى ظهرت بعد موته (سبعة اعوام فى السودان) لم يشر أقل اشارة الى هذه المهمة الخطيرة . ولم يرد ذكر اسماعيل برنو مرة واحدة فى كتابه . وسلاطين هو وحده الذى تكلم عنه وعن مهمته فى كتابه (الحديد والنار فى السودان) .

من سليمان ورابح [1] وظلوا فى البلاد فأصدر جيسى أمره بالبحث عنهم واحضارهم الى الفاشر ، وكان يحكم المدينة ميستيداليا بك « الذى شنقهم فى ساحة السوق دون محاكمة » .

تلك خاتمة الحرب التى توقع بعض المؤرخين الرسميين « أن تكون نتيجتها المحتومة قطع دابر الفتنة » .

وقد أجمل سلاطين نتائج هذه الحرب فقال : « ان الحكومة فى هذه الحرب قد تكبدت خسائر فادحة فى الرجال والأسلحة والذخيرة ، فى حين أن قبائل الجنوب العربية البقارة والتعايشة والحبانية والرزيقات التى أصابت ، قبل خضوع سليمان وبعده ، غنما كبيرا من السلاح والبازنجر، أصبحت من ذلك الوقت تعتد بما كسبت من جاه وقوة خلقت لنا فيما بعد مشاكل وعرة » .

وأخيرا استدعى غردون فى يونيه (٧٩) ولكن بعد أن تحرجت الأمور وطفح الكيل . وقد اثبتت الحوادث صدق حكم شاى لونج الأمريكى الذى ذكرناه من قبل « لقد وجد غردون السودان فى سلم ورفاهية وتركه فى سنة ١٨٧٩ ، ينوء بالدين ويهم بالثورة » .

---

(١) ذهب رابح بنفر من جنده الى منطقة بحيرة تشاد وتمكن بدهائه وتدبيره من تأسيس امبراطورية قوية هناك . وقد تمكنت فرانسا بعد حرب عوان من قتل رابح والاستيلاء على ملكه (٢٢ أبريل سنة ١٩٠٠) .